أسلوب « ومَنْ أظْلَم » في القرآن الكريم

(دراسة نظرية تطبيقية)

إعداد

د/ نور محمد علي إبراهيم مكّاوي

أستاذ مساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن

كلية أصول الدين والدعوة

بالزقازيق

من ٢٩٠٣ إلى ٣٩٩٤

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة والسَّلام على من أرسله الله رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين . أمَّا بعد :

فإنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أودع في كتابه الكريم من جمال النظم ، وسحر البيان ، وتنوُّع الأساليب ما يعجز عن إدراكه حذَّاق اللغة ، وأرباب البلاغة والبيان ؛ وذلك لأنه كلام الله الذي أنزله بلسانٍ عربيٍّ مبين .

ولقد كان من حكمة الله أن تعددتْ أساليب القرآن وتنوَّعت ، ومع تعدُّدها وتنوّعها لا نملك أمامها إلا الاستسلام والخضوع لعظمة هذا الكتاب العظيم .

وإنَّ من الأساليب التي تكرر ورودها في القرآن الكريم أسلوب : « وَمَنْ أَظْلَم » الذي تكرر وروده في عدد من آي الذِّكر الحكيم ، وقد شاءتْ إرادة الله أن أهتدي إليه وأكتب فيه هذا البحث الذي أسميته : (أسلوب « وَمَنْ أَظْلَم » في القرآن– دراسة نظرية تطبيقية) .

أسباب اختيار الموضوع وأهميته :

١– لم يُفرد هذا الموضوع بدراسةٍ مستقلةٍ فيما اطلعتُ عليه .

٢– جمع ما تفرَّق حول هذا الموضوع ، ودراسته دراسة تفسيرية .

٣– التعرُّف على أحد أساليب القرآن البليغة ، وتلمّس بعض حِكَمه ولطائفه .

٤– دفع ما قد يتوهَّم من تعارض بين الآيات الخاصة بهذا الموضوع .

٥– التعرُّف على هؤلاء الموصوفين في هذا الأسلوب ، وبيان بعض الحِكم من وصفهم بهذا الوصف .

خطة البحث :

قسمت هذا البحث إلى : مقدمة ، وقسمين ، وخاتمة .

المقدمة : وتشتمل على أسباب اختيار الموضوع ، وأهميته ، وخطة البحث .

القسم الأول : الدراسة النظرية : وتشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : التعريف بأسلوب: « ومَن أَظْلم » وأهميته .

المبحث الثاني : دفع موهم التناقض عن هذه الآيات .

القسم الثاني : الدراسة التطبيقية (دراسة مواضع هذا الأسلوب) .

ويشتمل على أربعة مباحث :

المبحث الأول : المانعون مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه .

المبحث الثاني : الحديث عن الكاتمين للشهادة .

المبحث الثالث: المواضع التي تحدثت عن افتراء الكذب على الله . ويشتمل على مطلبين :

المطلب الأول : المواضع المصرِّحة بأمر واحد .

المطلب الثاني : المواضع المصرِّحــة بأكثر من أمر .

المبحث الرابع : المواضع التي تحدثت عن الإعراض عن آيات الله .

الخاتمة : اشتملت على أهمِّ النتائج ، ثمَّ المصادر والمراجع .

وممَّا تجدر الإشارة إليه أنني آثرتُ صيغة : « ومَن أَظْلم » في عنوان البحث بالواو دون الفاء ؛ لأنَّ مجيئها بالواو أكثر ورودًا في القرآن الكريم .

أسأل الله عزَّ وجلَّ أن يكون هذا العمل خالصًا لوجهه ، وأن يجعله في ميزان حسناتي وحسنات والديّ يوم الدِّين ، وصلى الله على سيِّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القسم الأول :

الدراســــة النظــرية

المبحث الأول :

التعريف بـأسلوب : « ومَن أظْلم » وأهميِّته

أولًا - المقصود بهذا التركيب :

بالنظر والتأمُّل في تركيب : « ومَن أظْلم » : الذي يدور حوله هذا البحث نجد أنَّ أبرز ألفاظه :

ا- « مَنْ » : وهي : إحدىٰ أدوات الاستفهام ، ويطلب بها تعيين العقلاء [١] .

وتأتي « مَنْ » دائمًا – في هذا الأسلوب – مسبوقة بحرف « الواو » ، أو الفاء ، حسب موقع الجملة .

ب- « أَظْلَم » وهو أفعل تفضيل من الظلْم، والظُّلْم : وضْع الشيء في غير موضعه [٢] . وهو الاعتداء علىٰ حقِّ الغير بالتَّصرُّف فيه بما لا يَرضىٰ به [٣] .

قال الجرجاني : هو عبارة عن التعدي عن الحق إلىٰ الباطل ، وقيل: هو التصرّف في ملك الغير، ومجاوزة الحدّ [٤].

---

(١) الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها لأحمد بن فارس القزويني (ت: ٣٩٥هـ) (ص: ١٢٧) ط/ محمد علي بيضون ، ط/ أولىٰ ١٤١٨هـ-١٩٩٧م ، والنحو الواضح في قواعد اللغة العربية لعلي الجارم ومصطفىٰ أمين (١/ ٤١٣) [ط/ الدار المصرية السعودية للطباعة والنشر] .

(٢) جمهرة اللغة (٢/ ٩٣٤) ، وتهذيب اللغة (١٤/ ٢٧٤) ، والصحاح تاج اللغة (٥/ ١٩٧٧) ، ومقاييس اللغة (٣/ ٤٦٨) .

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٦٨٠) ، وينظر : جمهرة اللغة (٢/ ٩٣٤) ، وتهذيب اللغة (١٤/ ٢٧٤) .

(٤) التعريفات (ص: ١٤٤) ، وينظر : الكليات (ص: ٥٩٤) ، ونزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر لأبي الفرج عبد الرحمن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ) (ص: ٤٢٦) ط/مؤسسة الرسالة – بيروت ط/ أولىٰ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

وقد جاء هذا التركيب في القرآن الكريم في خمسة عشر موضعًا ، منه تسعة مواضع صُدِّرت

بـ« الواو » ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ [(١)] . وستة مواضع ، صُدِّرت بـ« الفاء » : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ [(٢)] .

ومِمَّا قيل في هذا الأسلوب :

– قيل : هو استفهام قُصد به التهويل والتفظيع من غير قصد إثبات الأظلمية للمذكور حقيقة ولا نفيها عن غيره [(٣)] .

– وقيل : هو استفهام قُصد به نفْي الزيادة في الظلم فحسب ، ونفي التفضيل لا يلزم منه نفْي المساواة [(٤)] .

وفي ضوء ما سبق: نستطيع أن نعرِّفه فنقول : هو أسلوب قُصد به المبالغة في تشنيع تلك الأفعال ، وبيان حال الموصوفين بها [(٥)] .

وهذا التعريف يتوافق مع ظاهر الآيات المتعلقة بهذا الموضوع ؛ فالأشياء المذكورة في الآيات هي أقبح الجرائم ، وأبشع الذنوب ، واستحقَّ أهلها أن يكونوا أظلم الظالمين ؛

---

(١) وترتيبها كالآتي : سورة البقرة الآية :١١٤ ، والأنعام الآيتان : ٢١ ، ٩٣ ، وهود الآية : ١٨ ، والكهف الآية :٥٧ ، والعنكبوت الآية : ٥٨ ، والسجدة الآية :٢٢ .

(٢) وترتيبها كالآتي : سورة الأنعام الآيتان :١٤٤، ١٥٧ ، والأعراف الآية : ٣٧ ، ويونس الآية : ١٧، والكهف الآية :١٢ ، والزمر الآية : ٣٢ .

(٣) الإتقان (٣/ ٩٨) ، وينظر : البرهان في علوم القرآن (٤/ ٧٦) ، وروح المعاني (١/ ٣٦٢) .

(٤) البحر المحيط (١/ ٥٧٢) ، والإتقان (٣/ ٩٨) ، وروح المعاني (٨/ ٢٨٦) ، والتفسير البلاغي للاستفهام (١/ ٢٩١) ، ودراسات لأسلوب القرآن الكريم د/ محمد عبد الخالق عضيمة (٣/ ٢٧٨) .

(٥) ينظر : التفسير الكبير (٤/ ١٠) ، والبرهان في علوم القرآن (٤/ ٧٦) ، وروح المعاني (١/ ٣٦٢) ، وصيغة المبالغة (أظلم) في القرآن– مركز تفسير – https://vb.tafsir.net/tafsir31691/

لما ارتكبوه في حقِّ خالقهم سبحانه من الافتراء عليه ، وتكذيب آياته ، والصدِّ عنها ، وغير ذلك ممَّا صنعوه .

ثانياً – المراد بالاستفهام الوارد في آيات : ﴿ وَمَنْ أَظْلَم ﴾ :

الاستفهام في الأصل هو : طلب العلم بشيء لم يكن معلومًا من قبل ، وذلك بأداةٍ من إحدى أدواته ، وقد تخرج أدوات الاستفهام عن معانيها الأصلية إلى معانٍ أخرى تُفهم من سياق الكلام وقرائن الأحوال (١) .

ولأنَّ هذا الأسلوب صُدِّر بأداةٍ من أدوات الاستفهام ، وصادر من الله سبحانه – والله تعالى لا يخفى عليه شيء حتى يستفهم – فقد ذهب المفسِّرون إلى أنَّ هذا الاستفهام

---

(١) ومن هذه المعاني : ١– النفي : وذلك بأن تجيء لفظة الاستفهام للنفي ، لا لطلب العلم بشيء كان مجهولًا قبل.

٢– الإنكار: وذلك بأن تجيء لفظة الاستفهام للدلالة على أنَّ المستفهم عنه أمر منكر سواء كان عرفًا أو شرعًا .

٣– التقرير: وهو حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمرٍ قد استقرَّ عنده إثباتًا ونفيًا ، ومنه : قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾ .

٤– التحقير: وقد يخرج الاستفهام عن معناه الأصلي للدلالة على تحقير المسؤول عنه مع معرفة السائل به .

٥– الوعيد : كقوله تعالى : ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ١٦] ينظر : اللباب في علل البناء والإعراب لأبي البقاء عبد الله العكبري (ت: ٦١٦هـ) (٢/ ١٢٩) [ط/ دار الفكر – دمشق ، ط/ أولى، ١٤١٦هـ ١٩٩٥م] ومفتاح العلوم ليوسف بن أبي بكر السكاكي (ت: ٦٢٦هـ) (ص: ٣١٤) وما بعدها [ط/ دار الكتب العلمية، بيروت ط/ثانية ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م] ، والبرهان في علوم القرآن (٢/ ٣٣١) ، وجواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع لأحمد بن إبراهيم الهاشمي (ت: ١٣٦٢هـ) (٣/ ٦٨) [ط/ المكتبة العصرية ، بيروت].

الوارد في هذه المواضع غير مراد به معناه الحقيقي ، وإنما معناه النفي ، فحينئذٍ فهو خبر، أي لا أحد أظلم من هؤلاء المتحدّث عنهم [١].

قال الآلوسي : ولا يُراد بالاستفهام حقيقته ، وإنَّما هو بمعنى النفي فيؤول إلى الخبر، أي لا أحد أظلم من ذلك [٢] .

ويصلح أن يكون هذا الاستفهام للتقرير [٣] [٤].

والفائدة من تحويل النفي إلى الاستفهام : أنه أبلغ في النفي ؛ إذ أنَّ الاستفهام الذي بمعنى النفي مشرّب معنى التحدي ؛ كأنه يقول : بيِّنوا لي أيّ أحد أظْلم من كذا وكذا [٥] .

كما أنَّ إيراد الكلام بأسلوب الاستفهام أقوى في تقرير واقع من أسلوب الخبر [٦] .

قال ابن عاشور : وقد عدل عن صوغ الحكم عليهم بصيغة الإخبار إلى صوْغه في صورة الاستفهام ؛ للإيذان إلى أنَّ السَّامع لا يسَعُه إلَّا الجواب بأنَّهم أظلم [٧] .

---

(١) المحرر الوجيز (١/ ١٩٩) ، والبحر المحيط (١/ ٥٧٢) ، والبرهان في علوم القرآن (٤/ ٧٤) ، والدر المصون (٢/ ٧٧) ، والإتقان (٣/ ٩٨) ، وعناية القاضي وكفاية الراضي (٤/ ٩٥) ، والتحرير والتنوير (١/ ٦٧٩) .

(٢) روح المعاني (١/ ٣٦١) ، وينظر : إرشاد العقل السليم (١/ ١٤٩) ، ومشكل إعراب القرآن لمكي (١/ ٢٤٧)، وزهرة التفاسير (٥/ ٢٧٠٨) .

(٣) ينظر : المحرر الوجيز(٢/ ٢٧٧ ، ٣٦٦) ، (٣/ ١١١، ١٥٩، ٥٢٥)

(٤) الاستفهام بمعنى الخبر له قسمان : أحدهما : نفي ، والثاني : إثبات ، فالوارد للنفي يسمى استفهام إنكار ، والوارد للإثبات يسمى استفهام تقرير ؛ لأنه يطلب بالأول إنكار المخاطب ، وبالثاني إقراره به . البرهان في علوم القرآن (٢/ ٣٢٨)، وينظر: الإتقان (٣/ ٢٦٨) .

(٥) تفسير سورتي الفاتحة والبقرة للشيخ /محمد بن صالح (٢/ ٥) .

(٦) تفسير الشعراوي (١٨/ ١١٢٧٧) .

(٧) التحرير والتنوير (٢٤/ ٥) .

ثالثاً- السُّوَر التي اشتملت على هذا الأسلوب :

ورد هذا الأسلوب في عشر سوَر : البقرة [١] ، والأنعام [٢] ، والأعراف [٣] ، ويونس[٤]، وهود [٥]، والكهف [٦] ، والعنكبوت [٧] ، والسجدة [٨]، والزمر[٩] ، والصف [١٠] .

وأكثر السُّوَر التي اشتملت على هذا الأسلوب سورة الأنعام ، ورد فيها في أربعة مواضع [١١] ، وبعدها سورة البقرة في موضعين [١٢] ، والكهف في موضعين [١٣] .

ومما يُلاحظ : أنَّ المواضع الأربعة التي وردتْ في سورة الأنعام تناولت أبرز الافتراءات : وهي افتراء الكذب على الله ، والتكذيب بآياته ، والصدِّ عنها ، وادِّعاء النبوَّة ، والإتيان بمثل هذا القرآن .كما سيأتي بيانه في الدراسة التطبيقية إن شاء الله تعالى .

–ولعلَّ ورود هذا الأسلوب في سورة الأنعام أكثر من غيرها ؛ أنها اشتملت على كثير من هذه الافتراءات والادعاءات التي زعمها المشركون وغيرهم .

(١) في الآيتين :١١٤ ، ١٤٠

(٢) في أربع آيات : ٢١ ،٩٣ ،١٤٤، ١٥٧ .

(٣) الآية : ٣٧ .

(٤) الآية : ١٧

(٥) الآية : ١٨ .

(٦) في الآيتين :١٥، ٥٧ .

(٧) الآية :٥٨ .

(٨) الآية :٢٢.

(٩) الآية :٣٢ .

(١٠) الآية :٧ .

(١١) الآيات : ٢١ ،٩٣ ،١٤٤، ١٥٧ .

(١٢) في الآيتين :١١٤ ، ١٤٠

(١٣) في الآيتين :١٥، ٥٧ .

قال القرطبي : قال العلماء : هذه السورة أصل في محاجَّة المشركين وغيرهم من المبتدعين ، ومَن كذَّب بالبعث والنشور ، وغير ذلك [١] .

وقال ابن عاشور: هي أجمع سور القرآن لأحوال العرب في الجاهلية ، وأشدّها مقارعة[٢].

-كما أنَّ غالب مقاصد سورة الأنعام تدور حول الأصول الأساسية للدعوة ، مثل قضية الألوهية ، وقضية الوحي والرسالة ، وهدم عقيدة الشرك ، بالحجة والبرهان، وهو ما تعرَّض له أسلوب : «ومَن أظْلم » في آياتها .

-كما أنَّ سورة الأنعام هي أوَّل السور المكيَّة في ترتيب المصحف الشريف ، فلعلَّ من المناسب مجيء ذكر هذه الأمور فيها – أكثر من السور المكية الأخرى- بهذا الاعتبار .

رابعاً - أركان هذا الأسلوب :

بالتأمُّل في هذا الأسلوب في القرآن نجد أنه تكوَّن من عدة أمور ، بيانها فيما يلي :

١- أداة الاستفهام :

والأداة المستخدمة هنا هي « مَنْ » وتستعمل للعاقل ، كما سبق ذكره .

-ويُلاحظ أنها الوحيدة من أدوات الاستفهام التي استُخدمت في هذا الأسلوب ؛ لأنَّها الأداة الخاصة بالاستفهام عن العقلاء .

وإذا تتبَّعنا كل مواضع هذا الأسلوب في القرآن نجد أنَّ أداة الاستفهام « مَن » تُسبق دائمًا إمَّا بـ« الواو » أو بحرف الفاء ، فوردتْ « مَن » مسبوقة بـ« الواو » في تسعة مواضع من إجمالي عدد المواضع الخمسة عشر . ووردت مسبوقة بـ« الفاء » في ستة مواضع كما سبقت الإشارة إليه .

---

(١)تفسير القرطبي (٦/ ٣٨٣) . بتصرف . وينظر : مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٧١) ،وفتح القدير للشوكاني (٢/ ١١٢) .

(٢)التحرير والتنوير (٧/ ١٢٥) .

-والمستفهِم : هو الله جلّ جلاله ، والاستفهام منه سبحانه ليس محمولًا على الحقيقة ؛ وإنما خرج عن معناه الحقيقي إلى معنى آخر ، كما سبق ذكره .

قال الزركشي : فإنَّ الربَّ تعالى لا يستفهم خلقَه عن شيء ، وإنمَّا يستفهمهم ليقرّرهم ويذكِّرهم أنهم قد علموا حقَّ ذلك الشيء ، فهذا أسلوب بديع انفرد به خطاب القرآن [١].

وقال الماتريدي : الاستفهام من اللَّه يخرج على الخبر مرة ، وعلى الإيجاب تارة والإلزام : أي: اعلموا أن ليس أحد من المفترين أظلم ممن افترى على اللَّه . وعلى الخبر: أي: قد علمتم أن ليس أحد من المفترين أظلم ممن افترى على اللَّه ؛ إذ قد عرفتم بعقولكم قبح الافتراء والكذب فيما بينكم ، فلا كذب ولا افتراء أوحش أو أقبح من الافتراء على اللَّه ، فكيف افتريتم عليه وهو أوحش وأقبح ؟ [٢] .

ب- « أَظْلَم » : الذي هو أفعل تفضيل ، ويُعرف أفعل التفضيل عند النحاة بأنه : اسمٌ مَصُوغ على وزن « أَفْعَل » للدَّلالة على أنَّ شيئين اشتركا في صفة ، وزاد أحدهما على الآخر فيها [٣].

و« أَفْعَل التفضيل » في آيات هذا الأسلوب ليس على بابه . وقد وقع خبرًا عن « مَن » الاستفهامية في كل هذه المواضع [٤].

ج- الموصول المجرور بـ «مِن» وصلته ، ويشمل :

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٣٢٧) ، وينظر : تأويلات أهل السنة (٨/ ٢٤٥) .

(٢) تأويلات أهل السنة (٨/ ٢٤٦) بتصرف .

(٣) النحو الواضح لعلي الجارم ، ومصطفى أمين (٢/ ٢٧٧)[ط/ الدار المصرية السعودية] وينظر : شرح قطر الندى وبل الصدى لعبد الله بن يوسف بن أحمد جمال الدين ابن هشام (ت: ٧٦١هـ) (ص: ٢٨٠) بتحقيق :محمد محيى الدين عبد الحميد [ط / القاهرة ، ط/الحادية عشرة ١٣٨٣ هـ].

(٤) دراسات لأسلوب القرآن الكريم (٣/ ٢٧٨) ، وينظر : التبيان في إعراب القرآن (١/ ١٠٧) ، وإعراب القرآن وبيانه لمحي الدين درويش (١/ ١٧١، ١٩٨) .

« مِن » الجارة ، و«مَن» الموصولة ، وجاء رسمهما في المصحف في كل المواضع بالإدغام هكذا « ممَّن » . وجملة الصلة : وهي عبارة عن الفعل وما يتعلق به .

ومن الأفعال التي استُخدمت في هذا الأسلوب ما يلي :

١- « مَنَع » : والمنع : أَن تَحُول بَيْنَ الرَّجُل وبيْنَ الشَّيْءِ الَّذي يُريدُه (١) . وقد ورد هذا الفعل في موضع واحد ، في سورة البقرة في قوله:﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾ (٢) وهي مدنية .

ولعلَّ مناسبة الحديث عن هذا في سورة مدنية مع أنَّ المشركين قد صدُّوا عن المسجد الحرام ؛ لأنَّ الصلوات الخمس ، وآدائها في جماعة لم تشرع إلا في العهد النبوي ، وكانت جهارًا ، بخلاف العهد المكي .

٢- «كَتَمَ » : والكِتْمان : نقيض الإِعلان ، وهو لفظ يدُلُّ على إخْفاءٍ وسَتْرٍ . مِن ذَلِكَ كَتَمْتُ الْحَدِيثَ كَتْمًا وَكِتْمَانًا (٣).

وقد ورد فعل : «كَتَمَ » في موضع واحد في سورة البقرة أيضًا في قوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ (٤) .

وعُلِّقت الأظلمية بمطلق الكِتْمَانِ – أي كتمان الشهادة – للإِيماء إلى أنَّ مرتبة من يَدْرِيها، ويَشهد بخلافها في الظلم ، خارجةٌ عن دائرة البيان (٥).

ولعلَّ مناسبة الحديث عن هذا –أيضًا– في هذه السورة ؛ لأنَّ هذا الموضع يتعلق بأهل الكتاب ، وكتمان بعض الحقائق ، ومنها : نبوَّة محمد (صلى الله عليه وسلم) وهذا كان بالمدينة ، وسورة البقرة مدنية ، بل هي أطول السور .

---

(١) لسان العرب (٨/ ٣٤٣) وينظر : مقاييس اللغة (٥/ ٢٧٨) ، والصحاح تاج اللغة (٣/ ١٢٨٧) .

(٢) سورة البقرة من الآية : ١١٤.

(٣) مقاييس اللغة (٥/ ١٥٧)،والصحاح تاج اللغة (٥/ ٢٠١٨) ، ولسان العرب (١٢/ ٥٠٦)

(٤) سورة البقرة من الآية : ١٤٠ .

(٥) إرشاد العقل السليم (١/ ١٧٠) ،وروح المعاني (١/ ٣٩٧) .

ومن المعلوم أنَّ السور المدنية، اهتمَّت بمجادلة أهل الكتاب أكثر من السور المكية .
ومن ثمَّ نلحظ أنَّ السرَّ في عدم ورود ما يتعلق بافتراء الكذب على الله وأنه أظلم الظلم في هذه السورة مع طولها ؛ أنها سورة مدنية ، والافتراءات في العهد المدني كانت أقل منها في العهد المكي . والله أعلم .

٣- « افْتَرَىٰ » : ورد هذا الفعل في تسعة مواضع في ستِ سور : الأنعام ، والأعراف ، ويونس ، وهود ، والكهف ، والعنكبوت ، والصفّ [١] ، ويُفسَّر الافتراء في كل موضع بما يدلّ عليه السياق [٢] .

ويُلاحظ هنا : أنَّ هذه المواضع التسعة وردتْ كلها في سورة مكية . ولعلَّ هذا ؛ لأنَّ العهد المكي كان الجدال من الكفار فيه أكثر ، والعناد فيه أشدّ ، فقد افتروا فيه أشدّ الافتراء ، وزعموا فيه أشدّ الزَّعم .

ومن المعلوم أنَّ السور المكية تكثر فيها مجادلة الكفار والمشركين وتفضح الكثير من أعمالهم ، وغير ذلك ، كما أنها تركز على قضايا العقيدة وأصول الدين من التوحيد والشرك ، ومن ذلك تناولها لأكبر الذنوب وهو افتراء الكذب على الله . وهو أهم ما يركِّز عليه هذا الأسلوب .

كما يُلاحظ : أنَّ هذه المواضع جاءت بصيغة : ﴿ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ بالجمع بين لفظ : « ﴿ ٱفۡتَرَىٰ ﴾ و﴿ كَذِبًا ﴾ [٣].

والافتراء هو : الْعَظِيم من الْكَذِب . ومعنى ﴿ ٱفۡتَرَىٰ ﴾ : افتعلَ واختلق مالا يصحّ أَن يكون ، أو ما لا وجود له [١] .

([١]) الأنعام في الآيتين :٢١، ٩٣ والأعراف في الآية : ٣٧ ، ويونس الآية :١٧ ، وهود الآية :١٨ ، والكهف الآية :١٥ ، والعنكبوت الآية :٦٨ ، والصفّ الآية:٧ .

([٢]) ينظر : تفسير المنار (١٢/ ٤٧) .

(٣) ما عدا موضع سورة الصَّف الذي جاء لفظ : «كذبًا » معرفًا، قال تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ ﴾ [الصف: ٧] وسيأتي دراسة هذا الموضع إن شاء الله .

وقالَ الرَّاغب: استعمل في القرآن في الكذب ، والشّرك ، والظّلم [٢] .

ومع أنَّ الافتراء يتضمَّن معنىٰ الكذب ، لكن صرّح بالكذب ؛ لبيان شدة افترائهم ، واختلاقهم ، وكلامهم الباطل الذي ليس له أصل من الحقيقة ، كعبادتهم الأوثان ، وغير ذلك [٣].

قال الرازي : الافتراء اختلاق الكذب ، وقيل للكذب افتراء ؛ لأنَّ الكاذب يقطع به في القول من غير تحقيق في الوجود [٤].

وقال ابن عاشور : وتقييد الافتراء بـ ﴿كَذِبًا﴾ لزيادة تفظيعِ الافتراء ؛ لأنَّ اسم الكذب مشتهَرٌ القبح في عُرف النَّاس ، وإنَّما اختِير الافتراء للدَّلالة علىٰ أنَّهم يتعمَّدون الاختلاق تعمُّدًا لا تُخالطه شُبهة [٥] .

والمراد بافتراء الكذب علىٰ الله تعالىٰ في هذه المواضع علىٰ سبيل الإجمال : الاختلاق عليه بالحكاية عنه ، والعزو إليه ، أو باتخاذ الشركاء والأنداد له ، والتقوّل عليه ، أو تكذيب ما جاء به رسله (عليهم السلام) ، كما يُؤخذ من مجموعِ ما ورد في ذلك ، علىٰ ما سيأتي بيانه إن شاء الله [٦] .

٤- «كذَب» ورد هذا الفعل في موضعين : ﴿كَذَّبَ﴾ [٧] بتشديد الذال ، و﴿كَذَبَ﴾ [١] بتخفيف الذال .

---

(١) الكليات (ص: ١٥٤) ، وينظر : الصحاح تاج اللغة (٦/ ٢٤٥٤) ، ومجمل اللغة لابن فارس (ص: ٧١٩)،ولسان العرب (١٥/ ١٥٣) .

(٢) المفردات في غريب القرآن (ص: ٦٣٤) .

(٣) زهرة التفاسير (٥/ ٢٥٩٢) باختصار.

(٤) التفسير الكبير (٨/ ٢٩٤) بتصرف . وينظر: الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري (ص: ٤٧).

(٥) التحرير والتنوير (٢١/ ٣٥) .

(٦) ينظر: الوسيط للواحدي (٢/ ٥٦٨)،والكشاف (٣/ ٤٦٥) ، وروح المعاني (٤/ ١١٤) ،و المنار (٧/ ٥١٩).

(٧) سور الأنعام من الآية : ١٥٧ .

والكذِب : اسم موضوع للخبر الَّذِي لا مخبر له على ما هو بِه [٢] . والتَّكْذِيب : التصميم على أَن الخَبَر كذب بالقطع عليه [٣] .

٥- «ذُكِّر» : بالبناء للمجهول ، وقد ورد هذا الفعل في موضعين : قوله : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [٤] . وقوله : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ [٥] .

وحذف الفاعل ؛ ليفيد هذا البناء التعميم في الفاعل ، رسلًا ، ودعاةً بعد الرُّسل إلى يوم القيامة [٦] .

د- بيان عاقبة الأظْلمين :

والمتأمِّل في تذييل آيات هذا الأسلوب يجد أنَّ في نهاية أغلب الآيات ما يدلُّ على الوعيد الذي ينتظر هؤلاء ، ومن ذلك تذييل آية سورة البقرة بقوله : ﴿...لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [٧] . وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [٨] .

---

(١) سورة الزمر من الآية : ٣٢ .

(٢) الفروق اللغوية للعسكري (ص: ٤٣) ، وينظر : الصحاح تاج اللغة (١/ ٢١٠) ، ومقاييس اللغة (٥/ ١٦٧) ، والمفردات (ص: ٧٠٤) ، والكليات (ص: ٧٤٢) .

(٣) الفروق اللغوية (ص: ٤٥) ، وينظر : الصحاح تاج اللغة (١/ ٢١٠) ، ومقاييس اللغة (٥/ ١٦٧) ، والمفردات في غريب القرآن (ص: ٧٠٥) .

(٤) سورة الكهف من الآية : ٥٧ .

(٥) سورة السجدة من الآية : ٢٢ .

(٦) التفسير البلاغي للاستفهام (٣/ ٢٧٢) .

(٧) سورة البقرة من الآية : ١١٤.

(٨) سورة السجدة الآية : ٢٢ . وينظر : التفسير الكبير (٤/ ١٠) .

خامساً - الأصناف المذمومة بهذا الأسلوب :

بتتبُّع الآيات الواردة في هذا الأسلوب يمكننا تصنيف الأنواع المذمومة إلى عدة أصناف :

١- المانعون مساجد الله تعالى أن يُذكر فيها اسمه ، والسَّاعُون في خرابها : وهذا الصّنف ورد الحديث عنهم في موضع واحدٍ ، كما سبق ذكره .

٢- الكاتمون للشهادة : وورد الحديث عن هؤلاء –أيضًا– في موضع واحد ، وسبق ذكره

٣- المفترون على الله الكذب : وورد الحديث عنهم في أحد عشر موضعًا ، كما سبق .

٤- المعرضون عن آيات الله : وورد الحديث عن هؤلاء في موضعين ،كما سبق ذكره .

وسيأتي الحديث عن هذه الأصناف والموصوفين بها في الدراسة التطبيقية إن شاء الله .

سادساً - أهمية هذا الأسلوب :

بالتأمل في هذا الأسلوب ومجيئه في القرآن يمكننا أن نتلمس بعض الحكم والفوائد من وروده ، ومن ذلك :

١- لفْت الانتباه إلى بيان سوء مصير هؤلاء الأظْلمين : فلوْ تأمَّلنا في تذييل هذه الآيات لوجدنا أنَّ فيه أشدّ الوعيد وأبلغ التهديد ، إمَّا بالتصريح أو بالتلويح لهؤلاء الموصوفين ممَّن منع مساجد الله أن يُذْكر فيها اسمه ، وكل من كتم شهادة الله ، وكل مفترٍ على الله الكذب ، وكل مدَّعٍ أنه يوحى إليه شيء ، وكلّ من زعم أنه في قدرته أن يأتي بقرآن مثل هذا القرآن ، وغير ذلك [١] .

---

[١] ينظر : غرائب القرآن (٣/ ١٩١) ، وروح المعاني (٤/ ٣٠٤) ، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٥/ ١٣٠) .

٢- لفْت أذهان السَّامعين نحو البحث والتأمل هل يجدون أظلم من هؤلاء حتَّى إذا أَجادوا التَّأمُّل واستقرَوْا مظانَّ الظّلمة واستعرضوا أصنافهم تيقَّنوا أَن ليس هناك ظلمٌ أشدُّ من ظُلم هؤلاء [١].

يقول الإمام الشعراوي : قوله : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ يبدأ بالخبر في صيغة الاستفهام ، حتى يأتي الإقرار من هؤلاء الذين افتروا على الله كذبًا ، والإقرار سيِّد الأدلَّة . الواحد من هؤلاء المفترين إذا سمع السؤال وأدار ذهنه في الظالمين ، فلن يجد ظلمًا أفدح ولا أسوأ من الذي يفتري على الله كذبًا ، ويقرّ بذلك . وهكذا شاء الحقُّ سبحانه أن يأتي هذا الخبر في صيغة استفهام ؛ ليأتي الإقرار اعترافًا بهذا الظلم الفظيع [٢] .

٣- الإخبار عن أسوأ طوائف بلغت أقصى درجات الظلم في الدنيا : فقد أخبر الله به عن طوائف متعددة حكم الله عليها بحكم بلغ الغاية في منتهاه ؛ ليبين جرمهم وافترائهم كأنهم انفردوا بهذه الأمور عن العالمين ، فليس هناك من هو مُساوٍ لهم ، وليس هناك من هو أشد منهم جرمًا ، وأكثر ظلمًا .

قال القنوجي: واللفظ وإن كان لا يقتضي إلا نفي وجود من هو أظلم منهم كما يفيده الاستفهام ، فالمقام يفيد نفي المساوي لهؤلاء في الظلم ، فالمعنى على هذا : لا أحد مثلهم في الظلم ، فضلًا عن أن يوجد من هو أظلم منهم [٣].

٤- بيان الصفات التي هي أعظم أنواع الظلم ، وتهويل أمرها وتفظيع حالها . ويشير إلى هذا الرازي فيقول: واعلم أنَّ قوله : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ إنما يورد في معرض المبالغة ، وفيه دلالة على أنَّ الافتراء على الله تعالى أعظم أنواع الظلم [٤].

---

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ٣٤) بتصرف . وينظر: البرهان في علوم القرآن (٤/ ٧٦) .

(٢) تفسير الشعراوي (١٠/ ٦٣٩٨) بتصرف .

(٣) فتح البيان (٦/ ١٦٠) بتصرف ، وينظر : إرشاد العقل السليم (٤/ ١٩٦) .

(٤) التفسير الكبير (١٧/ ٣٣١) ، وينظر: لباب التأويل (٢/ ٤٧٨) ، واللباب (١٠/ ٤٥٩) .

٥- نلمح في استخدام هذا الأسلوب غضب الله تعالى على الموصوفين ، فقوله : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ معناه : لا أحد أَظْلَم منهم ، وهذا يحمل في طيَّاته وعيد شديد ، وتخويف عظيم [١] .

٦- إيراد الكلام بأسلوب الاستفهام أقوى في تقرير واقع من أسلوب الخبر ؛ لأنَّ الخبر يأتي من المتكلم ، أمّا الإقرار فمن السامع ، وأنت لا تُلقي بالاستفهام إلَّا وأنت واثق أن الجواب سيأتي على وفْق ما تريد [٢].

ويشير ابن عطية إلى هذا فيقول: قوله : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ استفهام بمعنى التقرير، وهذا من أفصح التقرير أن يوقف الأمر على ما لا جواب له فيه إلا الذي يريد خصمه ، فالمعنى : لا أحد أَظْلَم ممَّن هذه صفته ، أن يعرض عن الآيات بعد الوقوف عليها بالتذكير [٣].

٧- نلمح في هذا الأسلوب ما يشير إلى تربية المهابة في أسماع المخاطبين [٤] .

فهذا الأسلوب فيه : « تنبيه للسَّامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ، أو يرتدع عن فعل ما همَّ به » [٥].

٨- التعبير بهذا الأسلوب فيه ضرب من الإيجاز ؛ لتذهب نفس السامع في تصور حالهم ومآلهم كل مذهب ممكن .

٩- الإشارة بهذا الأسلوب إلى تسفيه كل من افترى على الله كذبًا ، أو كذَّب بآياته وكل من ادَّعى من الأمور ما يستوجب غضب الله سبحانه وتعالى [٦].

---

(١) ينظر : المحرر الوجيز (٤/ ٣٢٦) ، والتفسير الكبير (١٣/ ٦٧) ، والتحرير والتنوير (٢١/ ٣٥).

(٢) تفسير الشعراوي (١٨/ ١١٢٧٧) .

(٣) المحرر الوجيز (٣/ ٥٢٥) ، وينظر: البرهان في علوم القرآن (٢/ ٣٢٧) .

(٤) التفسير البلاغي للاستفهام (١/ ١٦٠) .

(٥) الإيضاح في علوم البلاغة لجلال الدين القزويني (ت: ٧٣٩هـ) (٣/ ٧٢) [ط/ دار الجيل – بيروت ، ط/ثالثة] . وينظر : دلائل الإعجاز في علم المعاني لعبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١هـ) (١/ ١٢٠) [ط/ مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة ط/ثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م] .

(٦) ينظر : الهداية إلى بلوغ النهاية (٣/ ٢١٠٤) .

المبحث الثاني :

دفع موهم التناقض عن هذه الآيات

أولًا - سبب إيهام التناقض بين هذه الآيات :

سبب إيهام التناقض بين هذه الآيات ورود صيغة : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ متكرّرة في القرآن في أكثر من موضع ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ (٢) وقوله :﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ...﴾ (٣) وكلّ موضع منها يقتضي أنَّ المذكور فيه لا يكون أحد أظلم منه ، فكيف يُوصف غيره بذلك ؟ (٤) .

ثانياً - أوّل من تعرّض لحلِّ هذا الإشكال :

يعدُّ من أوّل من تعرَّض لحلّ هذا الإشكال ، ووقف عنده الإمام أبو حيَّان حيث ذكر قولين للعلماء ، ثمَّ أضاف قولًا ثالثًا (٥) .

ثم تبعه السمين الحلبيّ الذي اكتفى بنقل الوجوه الثلاثة (٦) . وتبعه ابن عادل بذكر هذه الوجوه (٧). ثمَّ كان من الزركشيِّ أن أضاف عليها وجهًا (٨) . ثمَّ نقل السيوطي عنه في الاتقان (٩) .

---

(١) ينظر : الدر المصون (٢/ ٧٧) ، والبرهان في علوم القرآن (٤/ ٧٤) ، والإتقان (٣/ ٩٨) .

(٢) سورة البقرة من الآية : ١٤٠ .

(٣) سورة الأنعام من الآية : ٢١ .

(٤) ينظر : الدر المصون (٢/ ٧٧) ، والبرهان في علوم القرآن (٤/ ٧٤) ، والإتقان (٣/ ٩٨) .

(٥) ينظر : البحر المحيط (١/ ٥٧٢) .

(٦) ينظر : الدر المصون (٢/ ٧٧) .

(٧) ينظر : اللباب في علوم الكتاب (٢/ ٤٠٥) .

(٨) ينظر : البرهان في علوم القرآن (٤/ ٧٤) .

(٩) (٣/ ٩٨) .

وتعرَّض لهذا –أيضًا– الآلوسي ، والشنقيطي [١] .

ثالثًا - اتجاهات المفسِّرين في دفع هذا الإيهام:

اتجه المفسِّرون في ذلك عدة اتجاهات ، كل اتجاهٍ منها كافٍ في دفع هذا التوهم ، منها :

الاتجاه الأول : تخصيص كل واحد في هذه المواضع بمعنى صلته ، كأنه قال : لا أحد من المانعين أظلمُ مِمَّن مَنع مساجد الله ، ولا أحد من المفترين أظلمُ ممَّن افترى على الله ، ولا أحد من الكذَّابين أظلم مِمَّن كذب على الله ، وهكذا في باقي الآيات . وإذا تخصَّص بالصِّلات زال التناقض [٢] .

الاتجاه الثاني : أنَّ التخصيص يكون بالنسبة إلى السَّبق ، لما لم يُسبَق أحد إلى مثله حكَم عليهم بأنَّهم أظلم ممَّن جاء بعدهم سالكًا طريقتَهم في ذلك ، وهذا يؤُول معناه إلى السَّبْق في المانعيَّة والافترائيِّة ونحوهما [٣].

أي : أنَّ أسلوب : « ومن أظْلم » في كل آية من تلك الآيات خاص بأوَّل من قام بالفعل الذي جاء ذمُّه في كل آية . وعليه : فصيغة : «ومن أظلم» في آية المانعين مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ، تعني : أنَّ من سبق إلى هذا المنع من عموم المانعين هو أظلمهم ، وصيغة : «أظلم» في آيات المفترين على الله كذبًا ، تعني أنَّ من بدأ بهذا الافتراء ، وسبق غيره ممن جاء بعده ، هو أظلمهم . ومن ثمَّ فلا تعارض أيضًا بين

---

(١) روح المعاني (٤/ ١١٤) ، ودفع إيهام الاضطراب (ص: ٢١) .

(٢) البحر المحيط (١/ ٥٧٢) ، والدر المصون (٢/ ٧٧) ، والبرهان في علوم القرآن (٤/ ٧٥) ، والإتقان (٣/ ٩٨) ، ودفع إيهام الاضطراب (ص: ٢١) .

(٣) البحر المحيط (١/ ٥٧٢) ، والدر المصون (٢/ ٧٨) ، والبرهان في علوم القرآن (٤/ ٧٤) ، واللباب (٢/ ٤٠٥) ، والإتقان (٣/ ٩٨) ، ودفع إيهام الاضطراب (ص: ٢١) .

الآيات ؛ لأنَّ « ومَن أظْلم » في كل آية من تلك الآيات يتحدث عن الأسبقية الزمنية لذلك الفعل ، كالمنع ، والافتراء ، والإعراض عن ذكر الله (١) .

وقد ذكر أبو حيَّان هذين الوجهين ، ثُمَّ اعترض عليهما فقال : وهذا كلُّه بُعد عن مدلول الكلام ووضعه العربيّ ، وعُجمة في اللّسان يتّبعها استعجام المعنى (٢) .

الاتجاه الثالث : حاصله : أنَّ المنفي هو الزيادة في الظلم دون المساواة (٣) . أي أنَّ قوله : « ومَن أظْلم » ينفي أن يكون هناك من هو أظلم من هؤلاء الموصوفين جميعًا ، لكن لا ينفي أن يكونوا متساويين . كما لو قلت : لا أحدَ أفقه في هذا البلد من زيدٍ ، ولا أحدَ أفقه فيه من خالد . فهذا لا يدلُّ على أنَّ أحدهما أفقه من الآخَر ، وإنما نفى أن يكون أحد أفقه منهما ، فيكون كِلا المقاليْن حقًّا (٤) .

ولا إشكال في تساويهم ؛ لأنَّ أفعالهم مع اختلاف طُرقها تُؤدي إلى الكفر ، والكفر أمر واحد لا يمكن فيه الزيادة بالنسبة لأفراده .

وعلى هذا ، فالمعنى : لا أحد أظلم من هؤلاء الكفار ممَّن مَنَع ، وممَّن افترى ، وممن كذب (٥).

وهذا ما ذهب إليه أبو حيَّان ، وشرحه بقوله : هذا نفي للأظلمية ، ونفي الأظلمية لا يستدعي نفي الظالمية ، وإذا لم يدلّ على نفي الظالمية لم يكن تناقضًا، لأنَّ فيها إثبات التسوية في الأظلمية . وإذا ثبتت التسوية في الأظلمية لم يكن أحد ممن وصف بذلك يزيد على الآخر، لأنهم يتساوون في الأظلمية .. ولا إشكال في تساوي هؤلاء في

---

(١) صيغة المبالغة (أظلم) في القرآن– مركز تفسير – https://vb.tafsir.net/tafsir31691/ وينظر:الإتقان (٣/ ٩٨) ، ودفع إيهام الاضطراب (ص: ٢١) .

(٢) البحر المحيط (١/ ٥٧٢) ، وروح المعاني (١/ ٣٦٢) .

(٣) ينظر : البحر المحيط (١/ ٥٧٢) ، والإتقان (٣/ ٩٨) ، واللباب في علوم الكتاب (٢/ ٤٠٥) .

(٤) البحر المحيط (١/ ٥٧٢) ، والإتقان (٣/ ٩٨) ، والتفسير البلاغي للاستفهام (١/ ٢٩١) ، ودراسات لأسلوب القرآن الكريم (٣/ ٢٧٨) ، والعذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير (١/ ٥١٣) [ط/ دار عالم الفوائد للنشر ، مكة ط/ثانية، ١٤٢٦ هـ].

(٥)ينظر: البحر المحيط (١/ ٥٧٢) .

الأظلمية ، ولأنَّ هذه الآيات كلها إنما هي في الكفار ، فهم متساوون في الأظلميَّة وإن اختلفت طُرق الأظلميَّة . فكلُّها صائرة إلى الكفر، فهو شيء واحد لا يُمكن فيه الزّيادة بالنّسبة لأفراد من اتَّصَف به ، وإنما تمكن الزيادة في الظلم بالنسبة لهم ، وللعصاة المؤمنين بجامع ما اشتركوا فيه من المخالفة ، فنقول: الكافر أظلم من المؤمن ، ونقول: لا أحد أظلم من الكافر . ومعناه: أن ظُلم الكافر يزيد على ظُلم غيره » [١] .

الاتجاه الرابع : أنَّ هذا الاستفهام مقصود به التهويل والتفظيع من غير قصد إثبات الأظلمية للمذكور حقيقة ولا نفيها عن غيره [٢] .

واعترض على هذا الشنقيطي، بقوله : « وهذا يظهر ضعفه ؛ لأنه خلاف ظاهر القرآن » [٣] .

وقال الزركشي : وهنا وجه أَمكن في المعنى وسالم عن الاعتراض وهو: الوقوف مع مدلول اللفظ من الاستفهام ، والمقصود به : أَنَّ هذا الأمر عظيم فظيع قصَدْنا بالاستفهام عنه تخييل أَنَّه لا شيء فوقه لامتلاء قلب المستفهم عنه بعظمته امتلاءً يمنعه من ترجيح غيره ، فكأنَّه مضطرٌّ إلى أن يقول: لا أحد أظلم ، وتكون دلالته على ذلك استعارةً لا حقيقة فلا يردّ كوْنُ غيره أظلم منه إن فُرض . وكثيرًا ما يستعمل هذا في الكلام إذا قُصد به التَّهويل : فيقال أيُّ شيءٍ أعظم من هذا إذا قصد إفراط عظمته ، ولو قيل للمتكلِّم بذلك :أنت قلتَ إنَّه أعظم الأشياء لأَبَى ذلك [٤].

أقول: على كلِّ حالٍ ، فهذه الاتجاهات كل اتجاهٍ منها صالح لدفع ما يتوهَّم تناقضه حول هذه الآيات .

---

(١) البحر المحيط (١/ ٥٧٢) باختصار ، وينظر : الدر المصون (٢/ ٧٧) ، والبرهان في علوم القرآن (٤/ ٧٥) ، واللباب (٢/ ٤٠٥) ، والاتقان (٣/ ٩٨) ، وروح المعاني (١/ ٣٦٢) ، ودفع إيهام الاضطراب (ص: ٢١).

(٢) الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٩٨) ، وروح المعاني (١/ ٣٦٢) .

(٣) دفع إيهام الاضطراب (ص: ٢٢) .

(٤) البرهان في علوم القرآن (٤/ ٧٦) بتصرف يسير .

رابعاً- إشكال آخر ، ودفعه :

الظاهر من الآيات يقتضي أنَّ هذه الأفعال أعظم أنواع الظلم ، وهذا فيه إشكال ؛ لأنَّ الشِّرك ظلم ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [١][٢] !

وأجيب على ذلك بما يلي :

١- أنَّه عام دخله التخصيص فلا يقدح فيه ، وهذا ما قاله الرازي [٣].

٢- وقيل : إنَّ المعنى في قوله : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ و ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾[٤] يساوي « أفعل التفضيل » في الآيات .

قال صاحب التفسير البلاغي: « وإذا ناظرنا بين قوله : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ وبين قوله : ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ وجدنا في :﴿ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ المعنى نفسه الذي يدلُّ عليه أفعل التفضيل في ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ ، وكذلك وصف الشرك بالعظيم في قوله :﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [٥] فوصف الإثم بأنه :﴿ عَظِيمٌ ﴾ ووصف ظلم الشرك هو المعادل لـ«أفعل التفضيل» في الزيادة في جانب المفضل على المفضَّل عليه ، فقد تباينت العبارات الثلاث في بعض الألفاظ ، أمَّا المعنى المراد منها جميعًا فهو أظلمية الكفر »[٦] .

---

(١) سورة لقمان من الآية : ١٣ .

(٢) مفاتيح الغيب (٤/ ١٢) ، واللباب في علوم الكتاب (٢/ ٤٠٩) ، وغرائب القرآن (١/ ٣٧٢) .

(٣) مفاتيح الغيب (٤/ ١٢) ، وينظر : اللباب (٢/ ٤٠٩) ، وغرائب القرآن (١/ ٣٧١) ، ومحاسن التأويل (١/ ٣٧٩) .

(٤) سورة النساء من الآية : ٤٨ .

(٥) سورة لقمان من الآية : ١٣ .

(٦) التفسير البلاغي للاستفهام (١/٢٩٤، ٢٩٥) بتصرف.

٣- أقول : والاتجاهات التي ذكرناها في حلِّ الإشكال الأول صالحة لحلِّ هذا الإشكال ما عدا الاتجاه الثالث ؛ لأنَّ المنفي فيه هو الزيادة في الظلم . كما سبق بيانه .

وهناك احتمال آخر لحلِّ هذا الإشكال أيضًا : وهو أنَّ افتراء الكذب في الآيات الواردة هنا يشمل الشِّرك وغيره .. ومن ثمَّ فلا إشكال (١) .

وقد فسَّر بعض المفسِّرين بعض هذه الآيات بما يدلُّ على هذا الاحتمال : قال الطبري: قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ (٢) يعني : ممن اختلق على الله كذبًا ، فزعم أنَّ له شريكًا من خلْقه ، وإلهًا يعبد من دونه - كما قاله المشركون من عبدة الأوثان - أو ادَّعى له ولدًا أو صاحبة (٣) .

وقال الزمخشري في قوله : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا . . .﴾ (٤) افتراؤهم على الله كذبًا : زعمهم أنَّ لله شريكًا (٥) .

وقال ابن عاشور: وإنَّما قال في السَّابقة : ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (٦) ؛ لأنَّ المخاطب فِيها أهل الكتاب بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا . . .﴾ (٧) فنُبِّهوا على أنَّ الشِّرْك من قبيل الافتراء تحذيرًا لهم من الافتراء وتفظيعًا لجنسه (٨).

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب (٤/ ١٣) ، وغرائب القرآن (١/ ٣٧٢) .

(٢) سورة الأنعام من الآية : ٢١ .

(٣) جامع البيان (١١/ ٢٩٦) باختصار .

(٤) سورة العنكبوت من الآية : ٦٨ .

(٥) الكشاف (٣/ ٤٦٥) ، وينظر : النكت والعيون (٤/ ٢٩٤) ، والوسيط للواحدي (٢/ ٥٦٨) .

(٦) سورة النساء من الآية : ٤٨ .

(٧) سورة النِّسَاء من الآية : ٤٧ .

(٨) التحرير والتنوير (٥/ ٢٠٢) .

القسم الثاني :

الدراسة التطبيقية

دراسة مواضع هذا الأسلوب

باستقراء مواضع هذا الأسلوب في القرآن نجد أنه قد ورد خمس عشرة مرة في عشر سور ،

وسنتحدَّث عن هذه المواضع بشيء من الإيجاز ، وذلك فيما يلي :

المبحث الأول :

المانعون مساجد الله أن يذكر فيها اسمه والساعون في خرابها

قال تعالى : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١) .

السياق الوارد فيه هذا الموضع :

ورد هذا الموضع في سياق الحديث عن بعض اِدّعاءات أهل الكتاب وغيرهم (٢).

سبب نزول الآية :

اختلف في سبب نزول هذه الآية على أقوال :

١- قيل : نزلت في بُخْتَنصر وأصحابه من المجوس الذين خربوا بيت المقدس ، وهذا قول قتادة .

---

(١) سورة البقرة من الآية : ١١٤.

(٢) ينظر : جامع البيان (٢/ ٥٢١) ، ومفاتيح الغيب (٤/ ١١)، ولباب التأويل (١/ ٧٢) ، وتفسير ابن كثير (١/ ٣٨٨) ، واللباب في علوم الكتاب (٢/ ٤٠٧) .

٢- وقيل: نزلت في بختنصر وبعض النصارى الذين أعانوه على تخريب بيت المقدس ، وذلك بغضًا لليهود . وهذا قول السدّي .

ورجَّح هذا الطبري ؛ لأنَّ مشركي مكة لم يسعوا في خراب المسجد الحرام ، وإن كانوا قد منعوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في بعض الأوقات من الصلاة فيه . وأيضًا ؛ فإنَّ الآية التي قبل هذه والتي بعدها في ذمِّ أهل الكتاب ، ولم يجْرِ لمشركي مكة ذكر ولا للمسجد الحرام فتعيَّن أن يكون المراد بهذه بيت المقدس (١) .

٣- وقيل : نزلت في مشركي قريش ، حين صدُّوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن المسجد الحرام ، وهذا قول ابن زيد ، ورجَّحه ابن كثير (٢) .

٤- وقيل : هي عامّة (٣).

والأقوال الثلاثة الأولى لم تسلم من الطعن : وقد نُقل عن القاضي ابن العربي أنه ردَّ الوجهين الأولين بقوله : هذان الوجهان غلطان ؛ لأنه لا خلاف بين أهل العلم بالسِّيَر أنَّ عهد بختنصر كان قبل مولد المسيح (عليه السلام) بدهر طويل والنصارى كانوا بعد المسيح فكيف يكونون مع بختنصر ؟ (٤).

- وممَّا يردُّ هذا -أيضًا- أنَّ النصارى يعتقدون في تعظيم بيت المقدس مثل اعتقاد اليهود وأكثر ، فكيف أعانوا على تخريبه ؟ (٥) .

---

(١) جامع البيان (٢/ ٥٢١) ، وينظر : تفسير ابن كثير (١/ ٣٨٨) ، ولباب التأويل في معاني التنزيل (١/ ٧٢) .

(٢) تفسيره (١/ ٣٨٨) ، وينظر: الوسيط للواحدي (١/ ١٩٣) .

(٣) النكت والعيون (١/ ١٧٤) ، وتفسير البغوي (١/ ١٥٧) ، والكشاف (٤/ ٦٢٩) ، والمحرر الوجيز (١/ ١٩٩) ، وتفسير القرطبي (٢/ ٧٧) .

(٤) التفسير الكبير (٤/ ١٠) ، وينظر : لباب التأويل (١/ ٧٢) ، واللباب (٢/ ٤٠٧) .

(٥) التفسير الكبير (٤/ ١١) ، ولباب التأويل (١/ ٧٢) ، واللباب (٢/ ٤٠٨) ، وفتح البيان (١/ ٢٥٨) .

وقال ابن كثير : وأمَّا اعتماد الطبري على أنَّ قريشًا لم تسْعَ في خراب الكعبة ، فأي خرابٍ أعظم مما فعلوا ؟ أخرجوا عنها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه، واستحوذوا عليها بأصنامهم وأندادهم وشركهم [١].

وأمَّا القول الثالث : فقد قال الرازي : كيف يليق بهذه الآية الواحدة أن يكون المراد منها قبائح أفعال المشركين في صدِّهم الرسول عن المسجد الحرام ، ولم يذكر في الآيات السابقة على هذه الآية إلا قبائح أفعال اليهود والنصارى ، وذكر أيضًا بعدها قبائح أفعالهم [٢].

والقول الأخير أرجح الأقوال ؛ لعمومه ، وقد رجَّحه أكثر المفسِّرين [٣].

قال أبو حيَّان : وظاهر الآية العموم في كُلِّ مانع ، وفي كُلِّ مسجدٍ ، والعموم وإن كان سبب نزوله خاصًّا ، فالعبرة به لا بخصوص السَّبب [٤].

مناسبة هذه الآية الكريمة لما قبلها :

في كيفية اتصال هذا النظم الكريم بما قبله وجوه : فأمَّا من حمله على النصارى وخراب بيت المقدس قال : تتصل بما قبلها من حيث إنَّهم ادعوا أنهم من أهل الجنة فقط ، فقيل لهم : كيف تكونون كذلك مع أنَّ معاملتكم في تخريب المساجد والسعي في خرابها هكذا [٥].

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٣٨٨) .

(٢) التفسير الكبير (٤/ ١١) .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي (١/ ٥١) ، وتفسير القرطبي (٢/ ٧٧) ، ولباب التأويل (١/ ٧٢) ، والبحر المحيط (١/ ٥٧١) ، وإرشاد العقل السليم (١/ ١٤٩) .

(٤) البحر المحيط (١/ ٥٧١) .

(٥) إرشاد العقل السليم (١/ ١٤٩) ، واللباب في علوم الكتاب (٢/ ٤٠٧) .

وأمَّا من حمله على المسجد الحرام قال : لما وجَّه الذم في حق أهل الكتاب ، شرع في ذم المشركين الذين أخرجوا الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه من مكة ، ومنعوهم من الصلاة في المسجد الحرام [١] .

وأمَّا من حمله على سائر المساجد قال : جرى ذكر مشركي العرب في قوله : ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ ﴾ [٢] .

وقيل: جرى ذكر جميع الكفار وذمّهم ، فمرة وجَّه الذِم إلى أهل الكتاب ، ومرَّة إلى المشركين [٣] .

المراد بالاستفهام :

سبق أن ذكرنا ما قاله المفسرون وهو أنَّ الاستفهام للنفي ، وهو خلاصة ما يقال في كل موضع ورد فيه أسلوب : « ومن أظلم » .

قال الشوكاني : هذا الاستفهام فيه أبلغ دلالة على أنَّ هذا الظلم متناهٍ ، وأنه بمنزلة لا ينبغي أن يلحقه سائر أنواع الظلم ، أي: لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله [٤].

الموصوفون بهذا الوصف :

اختُلف في ذلك فقيل : هم مشركو قريش الذين صدُّوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن المسجد الحرام [٥] .

– وقيل : هم أهل الكتاب ؛ لأنه لم يذكر في الآيات السابقة على هذه الآية إلا قبائح أفعال اليهود والنصارى ، وذكر أيضًا بعدها قبائح أفعالهم [٦] .

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٣٨٨) .

(٢) سورة البقرة من الآية : ١١٣ .

(٣) مفاتيح الغيب (٤/ ١١) ، وينظر : اللباب في علوم الكتاب (٢/ ٤٠٧) .

(٤) فتح القدير (١/ ١٥٣) ، وينظر : تفسير القرطبي (٢/ ٧٧) ، والتفسير البلاغي (١/ ٢٩٠) .

(٥) تفسيره (١/ ٣٨٨) ، وينظر: الوسيط للواحدي (١/ ١٩٣)

(٦) التفسير الكبير (٤/ ١١)

وقيل : هم بعض المجوس الذين خربوا بيت المقدس . وقيل: هو بختنصر وبعض النصارى الذين أعانوه على تخريب بيت المقدس [١] .

وقدَّمنا ما قيل حول هذه الأقوال ، وما يدلُّ عليه السياق أنَّ الموصوفين هنا أهل الكتاب

؛ لأنَّ السابق لهذه الآية واللاحق لها إنما يتعلق بأهل الكتاب ، ولا يمنع هذا من دخول مشركي قريش معهم ، فقد منعوا النبي (صلى الله عليه وسلم)من دخول المسجد الحرام ، وجرى لهم ذكر قبل هذه الآية ، ولا يمنع غيرهم ؛ لأنَّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

قال أبو السعود : وهذا الحكم عامٌّ لكلِّ من فعل ذلك ، وإن كان سبب النزول فعل طائفة معينة في مسجد مخصوص [٢].

المراد بالمساجد : اختلف في ذلك : فقيل: أريد بها بيت المقدس ، وقيل: المسجد الحرام ، وجمع : ﴿ مَسَـٰجِدَ ﴾ للتعظيم [٣] . وقيل : لا بأس أن يجيء الحكم عامًّا وإن كان السبب خاصًّا ، كما يقال لمن أذى صالحًا واحدًا : ومن أظلم ممن أَذى الصالحين [٤].

فإنْ قيل : كيف يصح أن يتأوَّل على بيت الله الحرام ولم يظهر فيه التخريب ؛ فالجواب : أنَّ منع الناس من إقامة شعار العبادة فيه يكون تخريبًا له [٥].

وقيل: إنَّ أبا بكر (رضي الله عنه) كان له موضع صلاة فخربته قريش لمّا هاجر [١].

---

(١) جامع البيان (٢/ ٥٢١) ، وينظر : لباب التأويل (١/ ٧٢) ، وتفسير ابن كثير (١/ ٣٨٨) .

(٢) إرشاد العقل السليم (١/ ١٤٩) باختصار، وينظر : تفسير القرطبي (٢/ ٧٧) ، ولباب التأويل (١/ ٧٢) ، والبحر المحيط (١/ ٥٧١) .

(٣) مفاتيح الغيب (٤/ ١١) .

(٤) الكشاف (١/ ١٧٩) ، ومفاتيح الغيب (٤/ ١١) ، ولباب التأويل (١/ ٧٢) ، والبحر المحيط (١/ ٥٧٣) .

(٥) التفسير الكبير (٤/ ١٢) .

وقيل: المراد سائر المساجد [٢].

والقول بالعموم أولى ، وقد رجَّحه أكثر المفسِّرين ، ومنهم القرطبي بقوله : وهو الصحيح ؛ لأنَّ اللفظ عام ورد بصيغة الجمع ، فتخصيصها ببعض المساجد وبعض الأشخاص ضعيف [٣].

وقال الآلوسي : وظاهر الآية العموم في كل مسجد ، وخصوص السبب لا يمنعه [٤].

وخصَّ المسجد بهذه التسمية ، وإن كان الذي يوقع فيه أفعالًا كثيرة من القيام والركوع والقعود . وكل هذا متعبَّد به ، ولم يقل مقام ولا مركع ؛ لأنَّ السجود أعظم الهيئات الدالة على الخضوع والخشوع والطواعية التامة [٥].

- المراد بمنع المساجد أن يذكر فيها اسم الله :

والمراد بمنع المساجد أن يذكر فيها اسم الله منع من يأتي إليها للصلاة ، والتلاوة ، والذِّكر
وغير ذلك ممَّا وُضعت له [٦].

واختُلف في «خراب» : فقيل : هو اسم مصدر بمعنى التخريب ، كالسَّلام بمعنى التسليم، وقيل : هو مصدر خَرِبَ المكان يخرَب خَرابًا ، فالمعنى : سعى في أن تَخرَب هي بنفسها بعدم تعاهدها بالعمارة [٧].

---

(١) السابق (٤/ ١٢) .

(٢) النكت والعيون (١/ ١٧٤) ، والمحرر الوجيز (١/ ١٩٩) ، وتفسير القرطبي (٢/ ٧٦) .

(٣) تفسير القرطبي (٢/ ٧٧) .

(٤) روح المعاني (١/ ٣٦١) باختصار ، وينظر: المحرر الوجيز (١/ ١٩٩) ، وأنوار التنزيل (١/ ١٠١) ، ولباب التأويل (١/ ٧٢) ، والبحر المحيط (١/ ٥٧١) ، وإرشاد العقل السليم (١/ ١٤٩) .

(٥) فتح القدير (١/ ١٥٣) ، وينظر : تفسير القرطبي (٢/ ٧٧) ، والتفسير البلاغي (١/ ٢٩٠) .

(٦) فتح القدير (١/ ١٥٣) ، وفتح البيان (١/ ٢٥٧) .

(٧) التبيان في إعراب القرآن (١/ ١٠٨) ، والدر المصون (٢/ ٧٩) ، واللباب (٢/ ٤٠٦) ، والمفردات في غريب القرآن (ص: ٢٧٧) .

والمراد بالسعي في خرابها : الخراب الحسّي والمعنوي ، فالخراب الحسّي: هدمها وتخريبها ، وتقذيرها ، والخراب المعنوي : منع الذاكرين لاسم الله فيها ، وتعطيلها عن الطاعات التي وُضعت لها [١].

ووُصف هؤلاء بذلك :

لأنَّ المنع من ذكر الله تعالى ، وإبطال الشعائر التي تذكِّر بالله ، انتهاك لحرمة الدين يفضي إلى نسيان الناس الرقيب المهيمن عليهم ، فتفشو فيهم المنكرات والفواحش، وانتهاك الحرمات ، وهضم الحقوق، وسفك الدماء ، وعبادة الله تعالى بذكره والصلاة له تنهي بطبيعتها عن الفحشاء والمنكر [٢].

ومن النكت التي ينبغي الإشارة إليها : أنه « استعمل لفظ : ﴿أَظْلَمُ﴾ في هذا المعنى وهو في غاية الحسن ؛ لأنَّ المسجد موضوع لذكر الله تعالى فيه ، فالمانع من ذلك واضع للشيء في غير موضعه . وأمَّا أنه لا أظلم منه ؛ فلأنه إن كان مشركًا فقد جمع مع شِركه هذه الخصلة الشنعاء فلا أظلم منه ، وإن كان يدعي الإسلام ففعله مناقض لقوله ؛ لأنَّ من اعتقد أنَّ له معبودًا عرف وجوب عبادته له والعبادة تستدعي متعبدًا لا محالة . فتخريب المتعبد ينبئ عن إنكار العبادة وإنكار العبادة يستلزم إنكار المعبود ، فهذا الشخص لا يكون في الحقيقة مسلمًا وإنما هو منخرط في سلك أهل النفاق ، والمنافق كافر أسوأ حالًا من الكافر الأصلي » [٣].

وإضافة المساجد إلى الله ؛ للتشريف ؛ ولبيان أنَّ الاعتداء عليها اعتداء على الله تعالى، وقد خصصتْ لعبادته سبحانه وتعالى ، ومنْع أن يذكر فيها اسمه ، منْع من ذكر الله تعالى وهو أكبر الآثام [٤].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٦٣) ، وينظر : التفسير الكبير (٤/ ١٢) ، وتفسير القرطبي (٢/ ٧٧) ، وزاد المسير (١/ ١٠٣) ، وإرشاد العقل السليم (١/ ١٤٩) .

(٢) تفسير المنار (١/ ٣٥٦) بتصرف . وينظر : التحرير والتنوير (١/ ٦٨٠) .

(٣) غرائب القرآن (١/ ٣٧١) باختصار .

(٤) زهرة التفاسير (١/ ٣٧٠) ، وينظر : البحر المحيط (١/ ٥٧٣) .

معنى قوله : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ :

اختلف في ذلك على أقوال ، منها :

قيل : هذا بشارة للمسلمين بأنَّ الله سيظهرهم على المسجد الحرام وعلى سائر المساجد ، ويحمل هذا الخوف على ظهور أمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) وغلبته لهم بحيث يصيرون خائفين منه ومن أُمَّته (١) .

وقيل : ما كان ينبغي لهم أن يدخلوها إلا بخشية وخضوع فضلًا عن الاجتراء على تخريبها أو تعطيلها (٢).

وقيل : المعنى : ما كان الحق والواجب إلا ذلك ، لولا ظلمُ الكفرة وعُتوّهم (٣).

وقيل : هذا خبر معناه الطلب ، أي لا تمكنوا هؤلاء – إذا قدرتم عليهم– من دخولها. ولهذا لما فتح رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مكة أمر من العام القابل أن ينادى: « أَلَا لا يَحُجَّنَّ بَعدَ العَامِ مُشْرِكٌ ولا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَان» (٤) .

عقوبة هؤلاء : ختمت الآية الكريمة ببيان عاقبة هؤلاء السَّاعين في خراب مساجد الله فقال تعالى: ﴿ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي : لهم في الدنيا الهوان والذلَّة بسبب ظلمهم وبغيهم ، ولهم في الآخرة عذاب عظيم ، وليس هناك أشقى ممن يجمع بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة (٥).

---

(١) الكشاف (١/ ١٧٩) ، والتفسير الكبير (٤/ ١٢) ، وتفسير ابن كثير (١/ ٣٨٩) .

(٢) إرشاد العقل السليم (١/ ١٤٩) .

(٣) التفسير الكبير (٤/ ١٢) ، وتفسير القرطبي (٢/ ٧٨) ، وتفسير ابن كثير (١/ ٣٨٩) .

(٤) تفسير ابن كثير (١/ ٣٨٩) ، والحديث أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ٦٥) كتاب : تفسير القرآن ، باب : قوله :﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٤] حديث رقم : ٤٦٥٧ ، والنسائي في السنن الكبرى (٤/ ١٣٣) رقم :٣٩٣٤ [ط/مؤسسة الرسالة – بيروت ، ط/أولى ، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م] .

(٥) الوسيط لطنطاوي (١/ ٢٥٤) ، وينظر : مفاتيح الغيب (٤/ ١٠) ، وتفسير ابن كثير (١/ ٣٩٠) ، والتحرير والتنوير (١/ ٦٨١) .

قال صاحب المنار : فأمَّا خزي الدنيا فهو ما يعقبه الظلم من فساد العمران ، المفضي إلى الذلّ والهوَان ، وناهيك بظلم يغري الناس بالفواحش والمنكرات ، ويسهل عليهم سبُل الشرور والموبقات ،وهو ظلم إبطال العبادة من المساجد، والسعي في خراب المساجد (١) .

وقد استُنبط من هذه الآية الكريمة فوائد عديدة ، منها :

١- عظم أجر الساعي في عمارة المساجد : وفي هذا يقول الرازي : هذه الآية : ظاهرها يقتضي أن يكون الساعي في تخريب المساجد أسوأ حالًا من المشرك ؛لأنَّ قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ يتناول المشرك ؛ لأنه تعالى قال:﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢) فإذا كان الساعي في تخريبه في أعظم درجات الفسق وجب أن يكون الساعي في عمارته في أعظم درجات الإيمان (٣) .

٢- أنَّ السعي في خراب المساجد ، يشمل جميع ما يمنع من الأمور التي بنيت لها كتعلم العلم وتعليمه والقعود للاعتكاف وانتظار الصلاة (٤) .

٣- أنَّ هذه الآية تتناول كل من منع من مسجد إلى يوم القيامة أو خرَّب مدينة إسلام ، لأنها مساجد ، وإن لم تكن موقوفة ، إذ الأرض كلها مسجد للأمة (٥) .

---

(١) تفسير المنار (١/ ٣٥٧) باختصار .

(٢) سورة لقمان من الآية : ١٣ .

(٣) مفاتيح الغيب (٤/ ١٣) ، وينظر : غرائب القرآن (١/ ٣٧٢) .

(٤) فتح البيان في مقاصد القرآن (١/ ٢٥٧) .

(٥) قاله ابن عطية في المحرر الوجيز (١/ ١٩٩) ، وينظر : البحر المحيط (١/ ٥٧٣) .

المبحث الثاني :

الحديث عن الكاتمين للشهادة

قال تعالى : ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

السياق الوارد فيه هذا الموضع : ورد هذا الموضع في سياق الحديث عن أهل الكتاب – على الأظهر–الذين حاجُّوا المسلمين في ربهم ، والذين ادَّعوا أنَّ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا على دينهم وملِّتهم (٢) .

وتعلق هذه الآية بما قبلها واضح : فبعد أن أبطل القرآن الكريم محاجة أهل الكتاب في دين الله بغير حق وأنكر عليهم ذلك – عقبه بإبطال دعواهم أنَّ أسلافهم من الأنبياء كانوا هودًا أو نصارى وكذَّبهم فيما زعموه (٣) .

و﴿ أَمْ ﴾ فيها وجهان: أحدهما: منقطعة ، فتقدر ببل والهمزة ، والتقدير: بل أتقولون ، فأضرب عن الجملة السابقة ، وانتقل إلى الاستفهام عن هذه الجملة اللاحقة ، على سبيل الإنكار ، أي أنَّ نسبة اليهودية والنصرانية لإبراهيم ومن ذكر معه ، ليست بصحيحة .

ثانيهما :أن تكون المتّصلة ، و﴿ أَمْ ﴾ على هذا معادلة للهمزة في قوله: ﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا ﴾(٤) فالاستفهام عن وقوع أحد هذين الأمْرين: المحاجَّة في الله ، أم إدعاء

(١) سورة البقرة من الآية : ١٤٠ .

(٢) تفسير القرطبي (٢/ ١٤٧) ، والبحر المحيط (١/ ٦٦٢) ، وإرشاد العقل السليم (١/ ١٦٩) .

(٣) التفسير الوسيط لطنطاوي (١/ ٢٨٨) ، ومحاسن التأويل (١/ ٤١٠) .

(٤) سورة البقرة من الآية : ١٣٩ .

اليهودية والنصرانية على الأنبياء ، وهو استفهام صحبه الإنكار والتوبيخ ، فإنَّ كِلا الأمرين باطلٌ [١].

والغرض من قوله : ﴿ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾ تجهيل هؤلاء وتسفيههم [٢] فبعد أن زعموا أن إبراهيم ومن ذكر معه كانوا هودًا أو نصارىٰ – بيَّن كذبهم بقوله : ﴿ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾ . كما بيَّن كذبهم في موضع آخر بقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [٣] وقوله: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ﴾ [٤] [٥].

والواو في : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ عاطفة على : ﴿ قُلْ ءَأَنتُمْ ﴾ والاستفهام للنفي ، والمعنىٰ : لا أحدّ أشدّ ظلمًا ممن يكتم شهادة ثبتت عنده عن الله ، تخبر بأنَّ هؤلاء الأنبياء كانوا على الإسلام ولم يكونوا هودًا أو نصارىٰ [٦].

الموصوفون بهذا الوصف : اختُلف في ذلك على قولين :

الأول : أنهم أهل الكتاب ، والمعنىٰ : لا أحدَ أظلم من أهل الكتاب ؛ لِأَنَّهم كتموا هذه الشَّهادة ، وهم عالمون بها . وهذا قول الجمهور.

---

(١) الكشاف (١/ ١٩٧) ، والمحرر الوجيز (١/ ٢١٦) ، والبحر المحيط (١/ ٦٥٩) ، والدر المصون (٢/ ١٤٦)

وإرشاد العقل السليم (١/ ١٦٩) .

(٢) تفسير القرطبي (٢/ ١٤٧) ، والبحر المحيط (١/ ٦٦٢) ، وإرشاد العقل السليم (١/ ١٦٩) .

(٣) سورة آل عمران ، من الآية : ٦٥ .

(٤) سورة آل عمران ، من الآية : ٦٧ .

(٥) أنوار التنزيل (١/ ١١٠) ، وإرشاد العقل السليم (١/ ١٧٠) ، وروح المعاني (١/ ٣٩٧) .

(٦) تفسير القرطبي (٢/ ١٤٧) ، وتفسير أبي السعود (١/ ١٧٠) ، والتحرير والتنوير (١/ ٧٤٨) ، والتفسير الوسيط لطنطاوي (١/ ٢٨٩) .

الثاني : أنَّ المسلمين لو كتموا هذه الشهادة لم يكن أحد أظلم منهم ، ويكون المراد بذلك التعريض بأهل الكتاب [١].

والقول الأول أَولى ويؤيده سياق الآيات ، ورجَّحه أبو حيَّان بقوله : هو الظَّاهر، لأنَّ الآية إنَّما تقدَّمها الإنكار، لما نسبوه إلى إبراهيم ومَن ذُكر معه . فالذي يليق أَن يكون الكلام مع أهل الكتاب ، لا مع الرسول (صلى الله عليه وسلم)وأتباعه ، لأَنَّهم مُقرُّون بما أخبر اللَّه به ، وعالمون بذلك العلم اليقين ، فلا يُفرض في حقِّهم كتمان ذلك [٢].

واختُلف في الشهادة في قوله : ﴿كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ فقيل : هي ما في كتبهم من أنَّ الأنبياء على الحنيفية لا على ما ادَّعوا هُم . وهو قول مجاهد والحسن والربيع . وقيل : هي ما عندهم من الأمر بتصديق محمد (صلى الله عليه وسلم) واتّباعه ، وهو قول قتادة وابن زيد [٣].

ولا تعارض بين القولين ؛ فقد اشتملت كتُبهم على الأمريْن : أنَّ إبراهيم كان على الحنيفية ، وكتموا ذلك ، وأنَّ محمدًا رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وكتموا ذلك .

ووصف هؤلاء بذلك : لأنهم اجترأوا على كتمان شهادة هي من عنده ، بل وشهدوا زورًا وبهتانًا على خلافها ، وذلك ظلم للحقيقة ، ولأنفسهم التي حجبوها عن نور الحق [٤].

([١]) الكشاف (١/ ١٩٧) ، وينظر: أنوار التنزيل (١/ ١١٠) ، والبحر المحيط (١/ ٦٦٢)) ، وإرشاد العقل السليم (١/ ١٧٠) ، وروح المعاني (١/ ٣٩٨) .

([٢]) البحر المحيط (١/ ٦٦٢) ، وينظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل (١/ ١١٠) ، وتفسير القرطبي (٢/ ١٤٧) ، .

([٣]) المحرر الوجيز (١/ ٢١٧) وينظر : جامع البيان (٣/ ١٢٤) ، وزاد المسير (١/ ١١٧) .

([٤]) التفسير القرآني للقرآن (١/ ١٤٨) بتصرف .

وجملة: ﴿عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ﴾ : صفتان لـ﴿ شَهَـٰدَةً ﴾ وجيء بالوصفين ؛ لتعليل الإنكار وتأكيده ؛ فإنَّ ثبوت الشهادة عنده وكونها من جانب جناب العلي الأعلى عزّ شأنه من أقوى الدواعي إلى إقامتها وأشدّ الزواجر عن كتمانها .

والمعنى : لا أحد أظلم من أهل الكتاب حيث كتموا هذه الشهادة وأثبتوا نقيضها بما ذكر من الافتراء [١] .

ولقد أغرب من قال : إنَّ قوله : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ﴾ [٢] . فيه تقديم وتأخير ، والتقدير: ومن أظلم عند الله ممن كتم شهادة حصلت عنده .

والمعنى : لو كان إبراهيم وبنوه هودًا أو نصارى ، ثمَّ إنَّ الله كتم هذه الشهادة لم يكن أحد ممن يكتم شهادة أظلم منه ، لكن لما استحال ذلك مع عدله وتنزهه عن الكذب، علمنا أنه ليس الأمر كذلك [٣].

وهذا الرأي مردود ، قال الآلوسي– بعد أن ذكره – : ولا يخفى ما في هذا الوجه من التكلف والتعسُّف وانحطاط المعنى ، فلينزّه كتاب الله تعالى العظيم عنه [٤].

عقوبة هؤلاء : يلاحظ هنا أنه لم تذكر عقوبة صريحة لهؤلاء الظالمين ، لكن جاء التهديد الشديد بقوله: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وهو وعيد شديد وتهديد ليس عليه مزيد ، وإعلام بأنَّ الله لا يترك عقوبتهم على هذا الظلم القبيح والذنب الفظيع ، ويدخل في ذلك كتمانهم لشهادته تعالى وافتراؤهم على أنبيائه (عليهم السلام) [٥] .

---

(١) إرشاد العقل السليم (١/ ١٧٠) باختصار ، وينظر : روح المعاني (١/ ٣٩٨) .

(٢) سورة البقرة من الآية : ١٤٠ .

(٣) التفسير الكبير (٤/ ٧٧) ، والدر المصون (٢/ ١٤٩) ، وروح المعاني (١/ ٣٩٨) ، وزهرة التفاسير (١/ ٤٣١) .

(٤) روح المعاني (١/ ٣٩٨) بتصرف . وينظر : الدر المصون (٢/ ١٥٠).

(٥) روح المعاني (١/ ٣٩٨) ، ومحاسن التأويل (١/ ٤١١) ، وفتح البيان (١/ ٢٩٦) .

قال الرازي : هذا هو الكلام الجامع لكل وعيد ، ومن تصوَّر أنه تعالىٰ عالم بسرِّه وإعلانه ولا يخفىٰ عليه خافية أنه من وراء مجازاته ، لا يمضي عليه طرفة عين إلا وهو حذر خائف ألا ترىٰ أنَّ أحدنا لو كان عليه رقيب لكان دائم الحذر والوجل مع أنَّ ذلك الرقيب لا يعرف إلا الظاهر، فكيف بالربِّ الرقيب الذي يعلم السرّ وأخفىٰ إذا هدَّد وأوعد بهذا الجنس من القول ! (١) .

(١) مفاتيح الغيب (٤/ ٧٨) باختصار ، وينظر : غرائب القرآن (١/ ٤١٦) ، ومحاسن التأويل (١/ ٤١١) .

المبحث الثالث :

المواضع التي تحدثت عن افتراء الكذب على الله

المطلب الأول :

المواضع المصرِّحة بأمر واحد

بلغ عدد المواضع التي صرّح فيها بأمر واحد خمسة مواضع :

الموضع الأول :

قوله تعالى : ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (١) .

السياق الوارد فيه هذا الموضع :

ورد هذا الموضع في سياق الحديث عن جهل العرب قبل الإسلام فيما كانوا حرَّموا من الأنعام ، وجعلوها أجزاء وأنواعًا : بحيرة ، وسائبة ، ووصيلة وحامًا ، وغير ذلك من الأنواع التي ابتدعوها (٢).

وجاء قوله : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ بالفاء ؛ لأنَّ الفاء لترتيب ما بعدها على معنى ما قبلها ، والمعنى : إذا كان المشركون قد كذبوا على الله تعالى ، وادعوا أنَّ الله تعالى حرَّمها ، فهم ظالمون مفترون ، ومَنْ أشد ظلمًا ممن يفتري على الله كذبًا ليضلَّ الناس (٣) .

---

(١) سورة الأنعام الآية : ١٤٤ .

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٥١) بتصرف ، وينظر : تفسير القرطبي (٧/ ١١٤) ، ولباب التأويل (٢/ ١٦٦) .

(٣) زهرة التفاسير (٥/ ٢٧٠٨) .

والاستفهام إنكاري ، معناه : لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبًا ، أي قصد الكذب على الله تعالى بادعاء أن الله تعالى حرم بعض ما رزقهم الله ، وهو لم يحرم ، وفي ذلك مع النفي توبيخ لهم (١).

وقوله : ﴿ لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ ﴾ اللام للعلة ، أي لأجل أن يضلَّ الناس بجهلٍ ، ووُصِفوا بعدم العلم بذلك مع أنهم عالمون بعدم صدوره عنه ؛ إيذانًا بخروجهم في الظلم عن حدود النهايات ؛ لأنه إذا كان المفترى بغير علم يعدّ ظالما ، فكيف بمن يفترى الكذب وهو عالم بذلك ؟ (٢).

الموصوفون بهذا الوصف :

اختُلف في ذلك : فقيل : هم المشركون ، كما يدلُّ عليه سياق الآيات ، وقيل : الموصوف مخصوص واحد ، هو عمرو بن لحيّ ؛ لأنه أوَّل من ابتدع هذه الأشياء (٣).

قال ابن كثير: أوَّل من دخل في هذه الآية عمرو بن لحيّ ؛ لأنه أوَّل من غيَّر دين الأنبياء وأوَّل من سيّب السوائب (٤) .

وقال أبو السعود : المراد كبراؤهم المقرُّون لذلك ، أو عمرو بن لحيّ وهو المؤسس لهذا الشرّ ، أو الكُلّ لاشتراكهم في الافتراء عليه ، ولا يقدح في أظلمية الكلِّ كون بعضهم مخترعين له ، وبعضهم مقتدين بهم (٥).

---

(١) السابق .

(٢) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٩٤) ، وينظر : فتح القدير (٢/ ١٩٥) ، وروح المعاني (٤/ ٢٨٦) ، وفتح البيان (٤/ ٢٦١) .

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٥٢) ، وإرشاد العقل السليم (٣/ ١٩٤) ، ومحاسن التأويل (٤/ ٥١٠) .

(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٥٢) وقد أخرج البخاري عن عَائِشَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا)، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « رَأَيْتُ جَهَنَّمَ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَرَأَيْتُ عَمْرًا يَجُرُّ قُصْبَهُ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ » صحيح البخاري (٦/ ٥٥) رقم : ٤٦٢٤ . وينظر: محاسن التأويل (٤/ ٥١٠) .

(٥) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٩٤) وينظر: محاسن التأويل (٤/ ٥١٠) ،وروح المعاني (٤/ ٢٨٦) .

ولا مانع من حمل اللفظ على العموم ، فيتناول كل مفترٍ ، وإذا استحقَّ هذا الوعيد على افتراء الكذب في تحريم مباحٍ ؛ فكيف إذا كذب على الله تعالى في مسائل التوحيد وفي النبوّات وغيرها ؟ [١] .

وافتراؤهم هنا : هو أنهم كانوا يحرمون ذكور الأنعام تارة وإناثها تارة وأولادها كيفما كانت تارة أخرى ، مسندين ذلك كله إلى الله سبحانه [٢] .

وخلاصة ذلك : أنَّ المشركين في الجاهلية كانوا يحرمون بعض الأنعام ، فاحتجَّ سبحانه على إبطال ذلك بأنَّ لكلٍ من الضأن والمعز والإبل والبقر ذكرًا وأنثى، فإن كان قد حرَّم منها الذكر وجب أن يكون كل ذكورها حرامًا ، وإن كان حرَّم جلّ شأنه الأنثى وجب أن يكون كل إناثها حرامًا ، وإن كان حرَّم ما اشتملت عليه أرحام الإناث وجب تحريم الأولاد كلها ؛ لأنَّ الأرحام تشتمل على الذكور والإناث .

وقصارى ذلك : إنه تعالى ما حرَّم عليهم شيئًا من هذه الأنواع الأربعة ، وإنهم كاذبون في دعوى التحريم ، وقد فصَّل ذلك أتمّ التفصيل مبالغة في الردِّ عليهم [٣].

ووصف هؤلاء بذلك : لأنَّهم تعمَّدوا الكذب على الله ، وقصدوا بكذبهم إضلال الناس ، ومَنْ أشد ظلمًا ممن يفتري على الله كذبًا ليضلَّ الناس [٤].

عقوبة هؤلاء : خُتم هذا النظم الكريم بقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وهو وعيد عام ، ويدخل فيه كل من كان على طريق هؤلاء الموصوفين ؛ لأنَّ اللفظ عام فلا وجه للتخصيص ، فكل من أدخل في دين الله ما ليس فيه فهو داخل في هذا الوعيد [٥] .

---

(١) غرائب القرآن (٣/ ١٨٠) ، وينظر : فتح القدير (٢/ ١٩٥) .

(٢) روح المعاني (٤/ ٢٨٥) ، ومحاسن التأويل (٤/ ٥١٠) ، وفتح البيان (٤/ ٢٦١) .

(٣) تفسير المراغي (٨/ ٥٤) ، وينظر : محاسن التأويل (٤/ ٥١٠) .

(٤) ينظر : زهرة التفاسير (٥/ ٢٧٠٨) .

(٥) فتح البيان في مقاصد القرآن (٤/ ٢٦١) .

وقد نفى الهداية عن القوم الظالمين ؛ لأنهم بسيرهم في طريق الظلم قد سدُّوا باب الهداية عن أنفسهم ؛ ولأنهم يعاونون بعضهم على الظلم ، ويبررونه ويرتضونه ، ويشجعون عليه ، ويتعاونون فيه على الإثم والعدوان (١).

الموضع الثاني : قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (٢) .

السياق الوارد فيه هذا الموضع :

ورد هذا الموضع في سياق الحديث عن بعض أكاذيب الكفار وتقوّلهم على الله تعالى . ومناسبة ذلك : أنه لما انقضى الكلام من إبطال زعمهم أَنَّ النَّبي (صلى الله عليه وسلم) افترى القرآنَ ونسبه إِلى الله ، وتعجيزهم عن برهانٍ لِمَا زعموه – بيَّن هنا أَنَّهم المفترون على الله عدَّة أكاذيب ، منها نفْيهم أن يكون القرآن منزَّلًا من عنده . فعُطفت جملة : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ﴾ على جملة : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ۚ﴾ (٣) ؛ لبيان استحقاقهم النّارَ على كفرهم بالقرآن (٤).

المصوفون بهذا الوصف :

الموصوف هنا الكفرة الذين زعموا أن النبي (صلى الله عليه وسلم)افترى القرآن (٥) .

---

(١) زهرة التفاسير (٥/ ٢٧٠٩) .

(٢) سورة هود من الآية : ١٨ .

(٣) سورة هود من الآية : ١٧ .

(٤) التحرير والتنوير (١٢/ ٣٢) ، وينظر : المحرر الوجيز (٣/ ١٥٩) ، ومفاتيح الغيب (١٧/ ٣٣١) .

(٥) المحرر الوجيز (٣/ ١٥٩) ، ومفاتيح الغيب (١٧/ ٣٣١) ، وتفسير القرطبي (٩/ ١٨) ، واللباب (١٠/ ٤٥٩) .

والمراد بالافتراء : زعمهم أنَّ هذا القرآن ليس من عنده سبحانه . وقيل : اتخاذهم الأصنام شفعاء [١] .

ولا مانع من حمله على العموم في كل ما افتروه على الله تعالى من كذبٍ [٢].

قال صاحب المنار: والأظهر أنَّ الافتراء هنا هو اتخاذ الشركاء والأولياء والشفعاء له بدون إذنه ، وزعم من زعم أنه اتخذ له ولدًا من الملائكة كالعرب الذين قالوا : الملائكة بنات الله، وغيرهم ، وكذا من افترى عليه بتكذيب ما جاء به رسله من دينه ، لصدِّهم الناس عن سبيله [٣].

وعلى كلٍّ : فالآية حكمها عامٌّ يشمل جميع من اتّصف بذلك ، ويدخل المشركون في ذلك دخولًا أوليًّا .

ووصف هؤلاء بذلك : لأنهم افتروا عليه سبحانه أشدّ الكذب ،كقولهم عن أصنامهم ﴿هَٰؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [٤] . وقولهم : الملائكة بنات الله . ولأنهم أضافوا كلامه سبحانه إلى غيره ، إذْ نسبوا القرآن إلى غير من أنزله ، وزعموا أنَّ الرسول (صلى الله عليه وسلم) افتراه [٥].

وقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ أي أولئك الموصوفون بذلك يُعرضون على ربهم ؛ ليبيّن خزيهم ويفضحهم ، فعَرْضهم على رَبِّهم عرض زجْرٍ وانتقامٍ ، وإلا فكلّ بشر معروض على الله يوم القيامة [٦].

---

(١) المصادر السابقة .

(٢)تفسير القرطبي (٩/ ١٨) ، والتفسير الكبير (١٧/ ٣٣١) ، وإرشاد العقل السليم (٤/ ١٩٦) ، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٧/ ١٨٣) .

(٣) تفسير المنار (١٢/ ٤٧) بتصرف يسير، وينظر: فتح البيان (٦/ ١٦٠) .

(٤) سورة يونس من الآية : ١٨.

(٥) تفسير القرطبي (٩/ ١٨) ، وفتح البيان (٦/ ١٦٠) ، والتحرير والتنوير (١٢/ ٣٢) .

(٦) المحرر الوجيز (٣/ ١٥٩) ، وإرشاد العقل السليم (٤/ ١٩٦) ، وفتح القدير (٢/ ٥٥٦) ، والتحرير والتنوير (١٢/ ٣٣) .

والتعبير بـ﴿ رَبِّهِمْ ﴾ فيه إيماءٌ إلى بطلان رأيهم في اتخاذهم أربابًا من دون الله عز وجلَّ [١].

والمراد بـ﴿ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ في قوله : ﴿ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ قيل : هم الملائكة الذين كانوا يحفظون أعمالهم عليهم في الدنيا ، وقيل : الناس . وقيل : الأنبياء (عليهم السلام) . وقيل : هم جميع أهل الموقف [٢] .

والراجح : أنهم جميع أهل الموقف من الملائكة الذين كانوا يسجِّلون عليهم أقوالهم وأعمالهم ، ومن الأنبياء ، والمؤمنين [٣] .

وقوله : ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ جيء فيه باسم الإشارة زيادة في التشنيع عليهم ، وفي تمييزهم عن غيرهم [٤].

والفائدة في اعتبار قول الأشهاد المبالغة في إظهار الفضيحة [٥].

قال الرازي : وإنما أراد به أنهم يُعرضون فيفتضحون بأن يقول الأشهاد عند عرضهم : ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ فحصل لهم من الخزي والنكال ما لا مزيد عليه [٦] .

عقوبة هؤلاء : وقوله : ﴿ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ يجوز أن يكون من كلام الأشهاد ، ويجوز أن يكون من كلام الله تعالى على سبيل الاستئناف [٧] .

---

(١) إرشاد العقل السليم (٤/ ١٩٦) ، وينظر : روح المعاني (٦/ ٢٣١) .

(٢) المحرر الوجيز (٣/ ١٥٩) ، والتفسير الكبير (١٧/ ٣٣١) ، وروح المعاني (٦/ ٢٣١) .

(٣) المحرر الوجيز (٣/ ١٥٩) ، وإرشاد العقل السليم (٤/ ١٩٦) ، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٧/ ١٨٣) .

(٤) التفسير الوسيط لطنطاوي (٧/ ١٨٤) ، وينظر : إرشاد العقل السليم (٤/ ١٩٦) .

(٥) مفاتيح الغيب (١٧/ ٣٣٢) ، وينظر : إرشاد العقل السليم (٤/ ١٩٦) .

(٦) مفاتيح الغيب (١٧/ ٣٣١).

(٧) إرشاد العقل السليم (٤/ ١٩٦) ، وروح المعاني (٦/ ٢٣١) ، وفتح القدير (٢/ ٥٥٦) .

و﴿ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ ﴾ فيها ما يفيد أنَّ عقوبة هؤلاء هي غضب الله عليهم ولعنته إيَّاهم ، وصُدِّرت الجملة بأداة الاستفتاح ﴿ أَلَا ﴾ لتأكيد الدعاء عليهم بالطرد والإبعاد عن رحمة الله تعالى بسبب افترائهم الكذب [١].

ولم يقل: (الأظلمين) ؛ لدفع ما قد يوحي بأنَّ الظالمين غير ملعونين وهذا خطأ . فجاء التعبير بـ ﴿ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ ؛لبيان أنَّه إذا كان عامة الظالمين ملعونين ، فما البال بمن هُمْ أكثر ظُلمًا وأشد كفرًا [٢] .

وهؤلاء ذكر الله تعالى لهم هنا أربعة عشر وصفًا ، أولها افتراء الكذب ، وآخرها : كونهم في الآخرة أخسر من غيرهم [٣] .

الموضع الثالث : قوله تعالى :﴿ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَـٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ [٤] .

السياق الوارد فيه هذا الموضع :

---

(١) الوسيط لطنطاوي (٧/ ١٨٤) ، وينظر : أنوار التنزيل (٣/ ١٣١) ، وإرشاد العقل السليم (٤/ ١٩٦) .

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم (٣/ ١١٩) ، وتفسير المنار (٧/ ٢٨٧) ، والتفسير البلاغي للاستفهام (١/ ٢٩٥) .

(٣) قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَـٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَـٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

هود الآيات من : ١٩ إلى ٢٢] ، وينظر: إرشاد العقل السليم (٤/ ١٩٦) ، وفتح البيان (٦/ ١٦٠) .

(٤) سورة الكهف ، الآيتان : ١٤، ١٥ .

ورد هذا الموضع في سياق الحديث عن أصحاب الكهف حين رأوا ما عليه قومهم من الشرك ، فقالوا: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ ﴾ (١).

وفي مناسبة قوله هذا قال أبو حيَّان : لما وحَّدوا اللَّه تعالى ورفضوا ما دونه من الآلهة أخذوا في ذَمِّ قومهم وسوء فِعلهم وأَنَّهم لا حجَّة لهم في عبادة غير اللَّه (٢).

والإشارة إلى قومهم بـ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ﴾ لقصد تمييزهم بما سيخبر به عنهم . وفي هذه الإشارة تعريض بالتعجب من حالهم ، وتحقير لشأنهم (٣).

وجملة : ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ ﴾ خبر عن اسم الإشارة ، وهو خبر مستعمل في الإنكار عليهم دون الإخبار ، إذ اتخاذهم آلهة من دون الله معلوم بين المتخاطبين (٤) .

وقوله : ﴿لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖ ﴾ أي : هلَّا يأتون ببرهانٍ قاطع يدلّ على عبادتهم لهذه الأصنام ، وقيل: ﴿عَلَيۡهِم﴾ راجع إلى الآلهة ، أي هلَّا أقاموا بينة على الأصنام في كونها آلهة (٥) .

وفي هذا القول تبكيت ، وتعجيز لهم ؛ لأنَّ الإتيان بحجةٍ على عبادة الأصنام محال (٦) .

---

(١) غرائب القرآن(٤/ ٤٠٨) ، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٨/ ٤٨٢) .

(٢) البحر المحيط (٧/ ١٤٩) .

(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٧٤) ، وفتح البيان (٨/ ٢٠) .

(٤) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٧٤) .

(٥) تفسير القرطبي (١٠/ ٣٦٦) ، وزهرة التفاسير (٩/ ٤٥٠٢) ، والتحرير والتنوير (١٥/ ٢٧٥).

(٦) الكشاف (٢/ ٧٠٧) ، والمحرر الوجيز (٣/ ٥٠١) ، وتفسير القرطبي (١٠/ ٣٦٦) ، وفتح البيان (٨/ ٢٠) .

والفاء في قوله : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ للإفصاح ؛ لأنها تفصح عن شرط مقدَّر، وتقدير الكلام : إذا كانوا قد اتخذوا الأصنام آلهة من غير برهان صحيح ، فقد ارتكبوا أشدّ الظلم [١].

الموصوفون بهذا الوصف :

الموصوفون بذلك هم عبدة الأصنام في زمان أصحاب الكهف في المقام الأول ، ثمَّ هي عامَّة في كلِّ مَن هذا شأنه .

أي: لا أحد أشدّ ظلمًا من قوم افتروا على الله تعالى كذبًا ، حيث زعموا أنَّ له شريكًا في العبادة والطاعة ، مع أنه تعالى منزَّه عن الشركاء [٢].

وهذا القول يُحتمل أنهم قالوه في مَقامهم بين يَدَي المِلِك ؛ تقبيحًا لما هو وقومُهم عليه وذلك أبلغ في التَّبَرِّي من عِبادة الأصنام ، وأَفتُّ في عضُد الملك إذا اجترءوا عليه بذمِّ ما هو عليه ، ويُحتمل أن قالوا ذلك عند قيامهم للأَمر الذي عزموا عليه [٣] .

ووصف هؤلاء بذلك : لأَنَّهم ظلموا أنفسهم باتخاذهم الأصنام آلهة من دون الله ، دون دليل أو برهان ، وأثبتوا شيئًا باطلًا ما يصح أن يكون ، والحكم بثبوت الشيء مع عدم الدليل عليه ظلم وافتراء على الله وكذب عليه [٤].

عقوبة هؤلاء : لم تذكر هنا عقوبة صريحة لهؤلاء عبَّاد الأصنام ، لكن قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ يحمل في طيَّاته الوعيد الشديد الذي ينتظر هؤلاء [٥].

---

(١) زهرة التفاسير (٩/ ٤٥٠٢) ، والتحرير والتنوير (١٥/ ٢٧٥) .

(٢) التفسير الوسيط لطنطاوي (٨/ ٤٨٣) بتصرف .

(٣) البحر المحيط (٧/ ١٤٩) ، وينظر : المحرر الوجيز (٣/ ٥٠١) .

(٤) ينظر: الكشاف (٢/ ٧٠٧) ، ومفاتيح الغيب (٢١/ ٤٤٢) ، والتحرير والتنوير (١٥/ ٢٧٥) .

(٥) ينظر : المحرر الوجيز (٤/ ٣٢٦) ، والتفسير الكبير (١٣/ ٦٧) ، والتحرير والتنوير (٢١/ ٣٥) .

فأسلوب ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ -كما يقول جمهور المفسرين – معناه: لا أحد أَظْلَمُ منهم . وهذا الحكم عليهم بأنهم أظلم الناس كافٍ في نزول غضب الله على هؤلاء الذين ساووا بين الخالق والمخلوق .

وإذا كان الله قد توعَّد الظالمين بالعذاب الشديد بقوله : ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ﴾ (١) فما بالنا بمن هم أشد ظُلمًا ، وأبشعهم جُرمًا ؟

الموضع الرابع : قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَاۗ سَنَجْزِي ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ﴾ (٢) .

السياق الوارد فيه هذا الموضع :

ورد هذا الموضع في سياق الحديث عن بعض الأعذار الباطلة لمشركي مكة ، ومنها قولهم : لو أنَّا نزل علينا كتاب لكنَّا أسرع إلى الهدى من اليهود والنصارى (٣) .

رُوي أنَّ كفار مكة قالوا : قاتل الله اليهود والنصارى ، كيف كذّبوا أنبياءهم ؟ فو الله لو جاءنا نذير وكتاب ، لكنَّا أهدى منهم ، فنزلت هذه الآية (٤) .

---

(١) سورة الكهف من : ٢٩ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية : ١٥٧ .

(٣) معالم التنزيل (٢/ ١٧٣) ، وزاد المسير (٢/ ٩٤) ، ولباب التأويل (٢/ ١٧٤) .

(٤) لباب النقول في أسباب النزول لجلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ) (ص: ١٦٥) [ط/ دار الكتب العلمية بيروت – لبنان] ، ومعالم التنزيل (٢/ ١٧٣) ، وزاد المسير (٢/ ٩٤) ، ولباب التأويل (٢/ ١٧٤) ،

وقوله :﴿ أَوْ تَقُولُوا ﴾ عطف على ما زعموه في الآية السابقة : ﴿ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ ﴾ (١) ، فهو مفسِّر له في أنَّ معناه : لئلَّا يقولوا (٢).

وإنما قالوا: ﴿ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ﴾ لحُسْنِ أفهامهم ، وحِدَّة أذهانهم ، وذلك أنهم يحفظون أشعارهم وأخبارهم ، وهم أُمِّيونَ لا يكتبون (٣).

و﴿ فَقَدْ جَاءَكُم ﴾ متعلِّق بمحذوفٍ ، أي لا تعتذروا بذلك فقد جاءكم . وإما شرطٌ له : أي إن صدقتم فيما تقولون فقد حصل ما فرضتم وجاءكم ﴿ بَيِّنَةٌ ﴾(٤).

والمراد بالبينة والهدى والرحمة : القرآن ، عبّر عن القرآن بالبيِّنة ؛ إيذانًا بكمال تمكّنهم من دراسته ، ثمَّ بالهدى والرحمة : تنبيهًا على أنه مشتملٌ على ما اشتملت عليه التوراة من الهداية ، بل هو عينُ الهداية والرحمة (٥) . وقيل : هو رسول الله ، سمَّاه سبحانه بينة ، وهدى ورحمة لمن اتَّبعه (٦) .

والغرض : قطع عذر المشركين ، وإثبات الحجة عليهم بإنزال القرآن على محمد ؛ كي لا يقولوا يوم القيامة إنَّ التوراة والإنجيل أنزلا على طائفتين من قبلنا وكنَّا غافلين عمَّا فيهما ، أو يقولوا لو نزل علينا الكتاب لكنَّا أهدى منهم (٧) .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ١٥٧ .

(٢) التفسير الكبير (١٤/ ١٨٧) ، وتفسير القرطبي (٧/ ١٤٤) ، واللباب (٨/ ٥٢٤) ، وإرشاد العقل السليم (٣/ ٢٠٢)، والتبيان (١/ ٥٥١) .

(٣)معاني القرآن للزجاج (٢/ ٣٠٧) ،وزاد المسير (٢/ ٩٥) ،وغرائب القرآن (٣/ ١٩٠) .

(٤) الكشاف (٢/ ٨١) ، والدر المصون (٥/ ٢٣١) ، وإرشاد العقل السليم (٣/ ٢٠٢) ، وروح المعاني (٤/ ٣٠٤) .

(٥) مفاتيح الغيب (١٤/ ١٨٧) ، وإرشاد العقل السليم (٣/ ٢٠٢) ، وروح المعاني (٤/ ٣٠٤) .

(٦) تفسير القرطبي (٧/ ١٤٤) .

(٧) التفسير الكبير (١٤/ ١٨٧) ، والمحرر الوجيز (٢/ ٣٦٥) ، ولباب التأويل (٢/ ١٧٤) ، واللباب (٨/ ٥٢٤) ، وفتح القدير (٢/ ٢٠٥) .

والفاء في : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ واقعة في جواب شرط محذوف تقديره: فإن كذَّبتم فلا أحدَ أظلمُ منكم [١].

المو‌صوفون بهذا الوصف :

الموصوف هنا : كفار مكة ، وسبب أظلميتهم أنهم ارتكبوا ظُلمين فاحشين:

أولهما : أنهم كذَّبوا بآيات الله تعالى : والمقصود بها : القرآن ، وقيل : الرَّسول (صلى الله عليه وسلم) [٢]. ولا مانع من الحمل على عموم الآيات .

وعبَّر عمَّا جاءهم بـ﴿ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ تهويلًا للأمر وتنبيهًا على أنَّ تكذيب أي آية كانت من آيات الله تعالى كافٍ في الأظلمية ، فما ظنّك تكذيب القرآن المنطوي على الكلِّ ، والمعنى : إنكار أن يكون أحد ظلم ممن فعَل ذلك [٣].

ثانيهما – أنَّهم صدفوا عنها : وفي « صدَف » قولان : الأول : أنه في هذه الآية لازم ، ومعناه : أعرض عنها ، ولم يتدبَّر فيها . الثاني: أنَّ « صدَف » في هذه الآية متعدي للمفعول والمفعول محذوف ، والمعنى: أنه صدَّ غيره عن اتباع آيات الله وصرفهم عنها [٤].

وعلى الأول فالمعنى : لا يكون أَحدٌ أَشدَّ ظُلْمًا من المكذِّب بالأمر الواضح النَّيِّر الَّذي لا شبهة فيه والمعرض عنها بعد ما عرف صحتها وصدقها . وتأخَّر الإعراض ؛ لأَنَّه ناشئٌ عن التَّكذيب والإِعراض عن الشَّيء هو بعد رؤيته وظهوره [٥] .

---

(١) تفسير القرطبي (٧/ ١٤٤) ، والدر المصون (٥/ ٢٣١) ، واللباب في علوم الكتاب (٨/ ٥٢٤) .

(٢) البحر المحيط (٤/ ٦٩٧) ، وإرشاد العقل السليم (٣/ ٢٠٢) ، وروح المعاني (٤/ ٣٠٤) .

(٣) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٠٢) ، وينظر : روح المعاني (٤/ ٣٠٤) .

(٤) أنوار التنزيل (٢/ ١٩٠) ، والدر المصون (٥/ ٢٣١) ، وغرائب القرآن (٣/ ١٩١) ، وروح المعاني (٤/ ٣٠٤) وأضواء البيان (١/ ٥٤٨) .

(٥) البحر المحيط (٤/ ٦٩٧) ، وينظر : الكشاف (٢/ ٨١) ، وأنوار التنزيل (٢/ ١٩٠) ، والدر المصون (٥/ ٢٣١) ، وغرائب القرآن (٣/ ١٩١) ، وروح المعاني (٤/ ٣٠٤).

وعلى الثاني : فمعنى « صدَف »: صدَّ ، ومفعوله محذوف ، أي: منع غيره منها . وعليه فالأول ضلال والثاني إضلال (١) .

وهذا المعنى أقوى وأظهر ؛ ففيه مبالغة في الذَّمِّ حيث كذَّب بآيات اللَّه وجعل غيره يُعرض عنها ويكذِّب بها (٢).

عقوبة هؤلاء : وقوله : ﴿ سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴾ وعيد لهم ببيان جزاء إعراضهم أوْ صدِّهم بحيث يفهم منه جزاء تكذيبهم (٣) فهو حكم بالعقوبة الرادعة ، والجزاء الأليم لأولئك الذين كذّبوا بآيات الله وصدّوا عنها (٤).

وعلَّق الجزاء على الصُّدوف ؛ لأنَّه هو ناشئ عن التكذيب (٥) .

الموضع الخامس : قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٦) .

السياق الوارد فيه هذا الموضع :

ورد هذا الموضع في سياق الحديث عن بعض المكذِّبين لأنبياء الله من أهل الكتاب والمشركين .

---

(١) أنوار التنزيل (٢/ ١٩٠) ، والدر المصون (٥/ ٢٣١) ، وروح المعاني (٤/ ٣٠٤) ، وزهرة التفاسير (٥/ ٢٧٥٠) ، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٥/ ٢٢٥) .

(٢) البحر المحيط (٤/ ٦٩٧) وينظر : الكشاف (٢/ ٨١) ، وأنوار التنزيل (٢/ ١٩٠) ، والدر المصون (٥/ ٢٣١) ،
وتفسير ابن كثير (٣/ ٣٧١) ، وروح المعاني (٤/ ٣٠٤) ، والتحرير والتنوير (٨/ ١٨٢) .

(٣) روح المعاني (٤/ ٣٠٤) .

(٤) التفسير القرآني (٤/ ٣٥٢) .

(٥) البحر المحيط (٤/ ٦٩٧) .

(٦) سورة الصف ، الآية : ٧ .

فبعد أن ذكر من حالهم أنَّ رسول الله لما جاءهم بالبيِّنات قالوا هذا سحر مبين – أردف ذلك ببيان أنَّ من يفتري الكذب على الله هو أظلم الظالمين [١].

وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ إمَّا كلام مستأنف، وإمَّا كلام متمم لما قبله ؛ لتقبيح ما بهت به الإسرائيليون عيسى (عليه السلام) مع الإشارة بعمومها إلى ذم كل من كان على شاكلتهم [٢].

قال ابن عاشور : المراد من هذا الاستفهام هم الذين كذَّبوا النبي صلى الله عليه وسلم. ولذلك عطف هذا الكلام بالواو ودون الفاء ؛لأنه ليس مفرعًا على دعوة عيسى (عليه السلام) وقد شمل هذا التشنيع جميع الذين كذَّبوا دعوة النبي (صلى الله عليه وسلم) من أهل الكتابين والمشركين . والمقصود الأول هم أهل الكتاب [٣] .

والموصوفون بهذا الوصف : قيل : أهل الكتاب ، وقيل : المشركون . وذلك أنَّ الضمير في: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم﴾ في قوله : ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [٤] يحتمل أن يعود لعيسى (عليه السلام) ويحتمل أن يعود للنبي (صلى الله عليه وسلم)، أي: فلما جاء عيسى ، أو محمد إلى بني إسرائيل بالآيات البيِّنات الدالة على صدقه ، قالوا على سبيل الجحود : هذا سحر مبين [٥].

---

(١) ينظر : تفسير المراغي (٢٨/ ٨٦) ، وينظر: الوسيط لطنطاوي (١٤/ ٣٦٠) ، ومحاسن التأويل (٩/ ٢٢٣) .

(٢) محاسن التأويل (٩/ ٢٢٣) بتصرف .

(٣) التحرير والتنوير (٢٨/ ١٨٨) .

(٤) سورة الصف الآية :٦ .

(٥) المحرر الوجيز (٥/ ٣٠٣) ، ومدارك التنزيل (٣/ ٤٧٦) ، ولباب التأويل (٤/ ٢٨٧)، والوسيط لطنطاوي (١٤/ ٣٥٨) .

فافتراء أهل الكتاب : تكذيبهم لما جاء به عيسى ، ووصْف آيات الله بالسحر ، وقيامهم بإخفاء الأخبار التي جاءت في كتبهم مثبتة صدق الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وكتموا شهادة الله : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ (١) (٢) .

وافتراء المشركين : تكذيبهم لمحمد (صلى الله عليه وسلم) فيما جاء به ،وتسميتهم آيات الله سحرًا (٣) .

وَإِنَّمَا جُعل افتراؤُهم الكذب على اللَّه ؛ لأَنَّهم كذَّبوا رسولًا يخبرهم أنه مرسل من الله فكانت حُرمة هذه النسبة تقتضي أَن يُقبلوا على التَّأمُّل فيما دعاهم إليه ليصلوا إلى التصديق ، فلمَّا بادروها بالإعراض وانتحلوا للداعي صفات النقص كانوا قد نسبوا ذلك إلى الله دون توقير (٤) .

وعلى كلٍّ: فحكم هذه الآية عام يشمل جميع من اتصف بذلك .

وجملة : ﴿وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ هذا تعجب ممن كفر بعيسى (عليه السلام) ومحمد (صلى الله عليه وسلم)بعد المعجزات التي ظهرت لهما ، أَي: لا أحد أظلم ممن يُدعي إلى الإسلام الذي يُوصله إلى سعادة الدارين ، فيكون حاله الافتراء على الله بتكذيب رسوله ، وتسمية آياته سحرًا ، وكان عليه أن يقابل ذلك بالشكر لا بالكفر (٥).

ووُصف هؤلاء بهذا الوصف لما يلي ؛

---

(١) سورة البقرة من الآية : ١٤٠ .

(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ١٨٨) ، وفتح البيان في مقاصد القرآن (١٤/ ١٢٠) .

(٣) جامع البيان (٢٣/ ٣٥٩) ، والمحرر الوجيز (٥/ ٣٠٣) ، وتفسير ابن كثير (٨/ ١١١) ، والتحرير والتنوير (٢٨/ ١٨٨) .

(٤) التحرير والتنوير (٢٨/ ١٨٨) باختصار.

(٥) تفسير القرطبي (١٨/ ٨٤) ، وإرشاد العقل السليم (٨/ ٢٤٤) ، وغرائب القرآن (٦/ ٢٩٧) ، والتحرير والتنوير (٢٨/ ١٨٨) .

١- لأنَّ ظلمهم قد تعدَّد ، وبغيهم قد تنوَّع : ظلموا ربَّهم إذْ نسبوا ما جاءهم من هديه وحجج رسوله (صلى الله عليه وسلم) إلى ما ليس منه فسَمَّوا آيات الله وحججه سحرًا ، وظلموا الرَّسُول (صلى الله عليه وسلم) بنسبته إلى ما ليس فيه إِذ قالوا : هو ساحر .

وظلموا أنفسهم إذ لم يتوخَّوْا لها النَّجاة ، وظلموا النَّاس بحملهم على التَّكذيب [١] .

٢- كما أنَّ هؤلاء لم ينظروا في الأدلة حتى يعلموا صدق الأنبياء ، وقد أهدروا عقولهم ، وركبوا أهواءهم ، وألقوا الأدلَّة وراءهم ظهريًّا : ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [٢] [٣] .

عقوبة هؤلاء : وقوله : ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تعقيب على هذه الجريمة التي اقترفها هؤلاء الذين يبهتون الحقّ ، ويكابرون في إنكاره . وفيه تأييس لهم من الإقلاع عن هذا الظلم ، أي أنَّ الذين بلغوا هذا المبلغ من الظُّلْم لا طمع في صلاحهم لِتمكُّن الكفر منهم حتَّى خالط سجاياهم وتقوَّم مع قوميَّتهم ؛ ولذلك جاء لفظ: ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾ للدّلالة على أنَّ الظُّلم بلغ حدَّ أنْ صار من مقوِّمات قوميَّتهم [٤] .

الفرق بين هذا الموضع وغيره :

يُلاحظ على هذا الموضع أنَّ لفظ : ﴿ٱلۡكَذِبَ﴾ جاء معرفًا باللام ، بخلاف المواضع السابقة التي جاء فيها لفظ : ﴿كَذِبًا﴾ نكرة ، وفي بيان ذلك قال الغرناطي: آية

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ١٨٨) بتصرف .

(٢) سورة البقرة ، من الآية : ٨٩ .

(٣) ينظر : تفسير المراغي (٢٨/ ٨٧) .

(٤) التحرير والتنوير (٢٨/ ١٨٩) بتصرف .

الصّف قد انفردتْ بذكر تعيين المفترىٰ فيه الكذب منطوقًا به ، من غير الإجمال الوارد في الآي الأُخر [١] .

وقال ابن جماعة : المراد بآية سورة الصَّف : كذب خاص وهو جعلهم البيِّنات سحرًا ، والمراد في بقية المواضع : أي كذبٍ كان [٢] .

---

(١) مِلاك التأويل (١/ ١٥١) ، وينظر:البرهان في توجيه متشابه القرآن (ص: ٢٣٦) .

(٢)كشف المعاني (٣٥٦) بتصرف .

المطلب الثاني :
المواضع المصرِّحة بأكثر من أمرٍ

وهي ستة مواضع ، نتناولها كما يلي :

أولًا : المواضع التي جمعت بين افتراء الكذب على الله ، والتكذيب بآياته :

وردت هذه المواضع في ثلاث سور ، هي: الأنعام ، والأعراف ، ويونس .

الموضع الأول : قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (١) .

السياق الوارد فيه هذا الموضع :

ورد هذا الموضع في سياق الحديث عن بعض افتراءات المشركين مقرونًا بالحديث عن أهل الكتاب (٢).

وقيل في وجه المناسبة : أنه تعالى لما حكم على أولئك المنكرين بالخسران في الآية الأولى بيَّن في هذه الآية سبب ذلك الخسران ، وهو أمران: أحدهما: أن يفتري على الله كذبًا، ثانيهما : تكذيبهم بآيات الله (٣).

والموصوفون بهذا الوصف :

قيل: هم مشركو مكة ، وافتراؤهم الكذب على الله : عبادتهم للأصنام من دون الله ، والتقوّل عليه ، والتكذيب بما ثبت بالحجَّة البيِّنة ، حيث قالوا : ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ (٤) وغير ذلك (٥) .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ٢١ .

(٢) روح المعاني (٤/ ١١٤) .

(٣) مفاتيح الغيب (١٢/ ٥٠١) .

(٤) سورة الأنعام من الآية : ١٤٨ .

(٥) الكشاف (٢/ ١٢) ، وينظر : زهرة التفاسير (٥/ ٢٤٦٧) ، ومحاسن التأويل (٤/ ٣٣٢) .

وقيـل : هـم أهـل الكتـاب ؛ لقولـه : ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُ﴾ [1] .

وافتراؤهم الكذب : تحريف كلام الله ، وتكذيب النبي (صلى الله عليه وسلم) ووصفه بخلاف أوصافه ، والزعم أنَّ لله ولدًا وصاحبةً ، وغير ذلك [2]. ولا مانع من الجمع بين القولين وقوفًا مع عموم اللفظ [3].

والمراد بتكذيب آيات الله : القرآن ، والمعجزات ، أو ما هو أعمّ [4] .

والتعبير بـ﴿أَوۡ﴾ مكان الواو مع أنهم جمعوا بين الأمرين : للتَّنبيه على أنَّ كلًّا منهما وحده بالغ غاية الإفراط في الظلم على النفس ، فكيف وهم وقد جمعوا بينهما ، فأثبتوا ما نفاه الله تعالى ، ونفوا ما أثبته ؟ [5] .

وقيل : جمع بين أمرَين متناقضين لا يجتمعان عند عاقل : كذبوا على الله بما لا حجة عليه ، وكذبوا بما ثبت بالحجة البينة والبرهان الصحيح [6] .

أي أنَّ الافتراء على الله ودعوى أنه تعالى حرَّم كذا وأحلَّ كذا ، مثل دعوى الرسالة ، يزعمون وجوب قبوله بلا دليل ، وتكذيبهم الآيات والمعجزات يشعر وجوب عدم قبول دعوى الرسالة مع قيام الأدلة القاطعة عليها [7] .

---

(١) سورة الأنعام من الآية : ٢٠ .

(٢) جامع البيان (١١/ ٢٩٦) ، وإرشاد العقل السليم (٣/ ١١٩) ، وروح المعاني (٤/ ١١٤) .

(٣) محاسن التأويل (٤/ ٣٣٢) ، وينظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٢/ ١٥٧) .

(٤) جامع البيان (١١/ ٢٩٦) ، والمحرر الوجيز (٢/ ٢٧٧) ، وتفسير القرطبي (٦/ ٤٠١) ، وإرشاد العقل السليم (٣/ ١١٩) ، وروح المعاني (٤/ ١١٤) .

(٥) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٢/ ١٥٧) ، وإرشاد العقل السليم (٣/ ١١٩) ، وتفسير المنار (٧/ ٢٨٧) ، ومحاسن التأويل (٤/ ٣٣٢) ، وفتح البيان (٤/ ١١٩) .

(٦) الكشاف (٢/ ١٢) ، وينظر : فتح البيان (٤/ ١١٩).

(٧) التفسير المظهري ، لمحمد ثناء الله (٣/ ٢٢٥) باختصار ،[ط/ مكتبة الرشدية – باكستان عام١٤١٢ هـ] .

والأول أوضح ، واكتفي به كثير من المفسرين [(١)].

كما يُستفاد من الجمع بين الأمرين أنَّ الكاذب على الله والمكذِّب بآياته في الكفر سواء [(٢)].

وُصف هؤلاء بذلك : لأنهم جمعوا بين أمرَين بلغوا بها أقصى درجات الكذب ،والتكذيب ، وبها استحقوا أن يكونوا هم ومن يشابهونهم أظلم الناس[(٣)] .

: وقوله تعالى :﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ استئناف بياني يُبيِّن سوء عاقبة المكذبين وقع موقع جواب السؤال ، أي الحال أنَّ الظالمين عامَّة لا يفوزون في عاقبة أمرهم فكيف تكون عاقبة من وصف بأنه لا أحد أظلم منه [(٤)] .

وفائدة تصديرِ الجملة بضمير الشأن :﴿إِنَّهُۥ﴾ ؛ للإيذان بفخامة مضمونها ، مع ما فيه من زيادة تقريرِه في الذهن ؛ فإنَّ الضميرَ لا يُفهمُ منه من أول الأمر إلا شأنٌ مبهمٌ له خطر فيبقى الذهنُ مترقِّبًا لما يعقُبه فيتمكن عند وروده له فضلُ تمكُّن ، فكأنه قيل : إنَّ الشأن الخطير هذا هو ﴿لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [(٥)] .

وجاء النظم بـ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ دون غيره تنبيهًا على أنَّ علَّة عدم الفلاح الظلمُ [(٦)] .

---

(١) ينظر: أنوار التنزيل (٢/ ١٥٧) ، وإرشاد العقل السليم (٣/ ١١٩) ، وتفسير المنار (٧/ ٢٨٧) ، ومحاسن التأويل (٤/ ٣٣٢) ، وفتح البيان (٤/ ١١٩) .

(٢) المحرر الوجيز (٢/ ٢٧٧) ، ومدارك التنزيل (٢/ ١٢) .

(٣) زهرة التفاسير (٥/ ٢٤٦٧) بتصرف ، وينظر : فتح القدير (٢/ ١٢١) ، والتفسير القرآني (٤/ ١٤٧) .

(٤) تفسير المنار (٧/ ٢٨٧) باختصار .

(٥) إرشاد العقل السليم (٣/ ١١٩) .

(٦) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٤٩٣) .

ولم يقل :(الأظلمون) لدفع ما قد يوحي بأنَّ الظالمين يفلحون ، وهذا محال . فجاء التعبير بـ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لبيان أنَّه إذا كان عامة الظالمين لا يفلحون ، فما البال بمن هم أكثر ظُلمًا وأشد قبحًا [1] .

الموضع الثاني : قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾[2] .

السياق الوارد فيه هذا الموضع : ورد هذا الموضع في سياق الحديث عن المشركين من أهل مكة ، وافتراءاتهم على القرآن [3] .

فبعد أن قالوا للنبي (صلى الله عليه وسلم) ائتِ بقرآنٍ آخر سوى هذا القرآن الذي تتلوه علينا ، أو بدِّله – أمر الله تعالى نبيَّه (صلى الله عليه وسلم) أن يردَّ على ادِّعاءاتهم ، فقال : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾[4] .

ومساقه هنا باعتبارين : أحدهما : أنه لما قالوا : ائْتِ بقرآنٍ غير هذا أو بدِّله، كان في ضمنه أنهم ينسبونه إلى أنه ليس من عند الله وإنما هو اختلاق ، فبُولغ في ظلم من افترى على الله كذبًا .

وقد قام الدليل القاطع على أنَّ هذا القرآن هو من عند الله، وقد كذبتم بآياته، فلا أحد أظلم منكم .

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم (٣/ ١١٩) ، وتفسير المنار (٧/ ٢٨٧) ، والتفسير البلاغي للاستفهام (٢٩٥/١) .

(٢) سورة يونس ، الآية : ١٧ .

(٣) ينظر : التفسير الكبير (١٧/ ٢٢٦) ، وتفسير القرطبي (٨/ ٣١٩) ، والمحرر الوجيز (٣/ ١١٠) ، وفتح القدير (٢/ ٤٩١) ، وروح المعاني (٨/ ١٢٣) .

(٤) المصادر السابقة .

والاعتبار الثاني: أنَّ ذلك توطئة لما يأتي بعده من عبادة الأوثان أي: لا أحد أظلم منكم في افترائكم على الله أنَّ له شريكًا، وأنَّ له ولدًا، وفيما نسبتم إليه من التحليل والتحريم [١] .

والفاء للإفصاح عن شرط مقدَّر ، تقديره : إذا كان من عندي كما تدَّعون وكما تفترون، ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ [٢] .

والموصوفون بهذا الوصف : هم مشركو مكة ، في المقام الأول ، ثمَّ هي عامَّة في كل من هذا شأنه [٣].

وقيل المفتري على الله الكذب هم المشركون . والمكذِّب بآياته : هم أهل الكتاب [٤] .

وافتراء الكذب على الله : هو اختلاق القول عليه ، وتقوّل الأحاديث عنه ، أو تبديل بعض آياته تعالى ببعض . وقيل : الافتراء هو اتخاذ الولد والشريك [٥] .

والأول أولى ؛ لأنَّ السِّياق يدلُّ عليه ، وأشار أبو السعود إلى هذا ، فقال : الفاء لترتيب الكلام على ما سبق من بيان كون القرآن بمشيئته تعالى وأمره ، فلا مجال لحمل الافتراء على الافتراء باتخاذ الولد والشريك [٦] .

والمراد بالآيات : القرآن ، كما هو إشعار السياق [٧] . وقيل : هو إنكار الوحي [٨].

---

(١) البحر المحيط (٦/ ٢٦) باختصار ، وينظر: تفسير المنار (١١/ ٢٦٤) .

(٢) زهرة التفاسير (٧/ ٣٥٣٦) ، وينظر : إرشاد العقل السليم (٤/ ١٣١) .

(٣) ينظر : تفسير القرطبي (٨/ ٣١٩) ، والمحرر الوجيز (٣/ ١١٠) ، وروح المعاني (٨/ ١٢٣) .

(٤) تفسير القرطبي (٨/ ٣٢١) ، وفتح القدير (٢/ ٤٩٢) ، وفتح البيان (٦/ ٣٢) .

(٥) مدارك التنزيل (٢/ ١٢) ، وإرشاد العقل السليم (٤/ ١٣١) ، والتفسير القرآني (٦/ ٩٧٤) .

(٦) إرشاد العقل السليم (٤/ ١٣١) .

(٧) ينظر : تفسير القرطبي (٨/ ٣٢١) ، ولباب التأويل (٢/ ٤٣٣) ، وإرشاد العقل السليم (٤/ ١٣١) ، وتفسير المنار (٧/ ٥١٩) ، وزهرة التفاسير (٧/ ٣٥٣٦) .

(٨) روح المعاني (٦/ ٨٣) ، وتفسير المنار (٧/ ٥١٩) .

التعبير بـ ﴿ أَوْ ﴾ للإيذانِ بأنَّ كلاً منَ الافتراء والتكذيب وحدَه بالغٌ غايةَ الإفراط في الظلم فكيف وهم قد جمعوا بينهما ، فأثبتوا ما نفاه الله تعالىٰ ونفَوْا ما أثبته [١] .

ووصف هؤلاء بذلك ؛ بسبب ما طلبوه من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يأتيهم بقرآنٍ جديد ، أو تبديل بعض آياته ، وهذا افتراء شديد ، وجرم فاحش .

فأظلم الظالمين من يجرؤ علىٰ ركوب هذا المركب المهلِك فيتقول علىٰ الله ، ويفتري الأحاديث عليه .

وأظلم الظالمين من يرىٰ آيات الله ، ويستمع إليها .. ثمَّ يكذِّب بها ، ويصمّ أذنيْه عنها ، ويغلق قلبه دونها [٢] .

عقوبة هؤلاء : وقوله : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ تذييل قصد به التهديد والوعيد الشديد ، أي إنَّ حال وشأن هؤلاء المجرمين أنهم لا يفلحون . ولا يصلون إلىٰ ما يبغون ويريدون [٣].

وقد أكّد نفي فلاحهم بالجملة الاسمية ، وبـ«إنَّ» الدَّالة علىٰ التأكيد ، ووصفهم بالإجرام [٤] .

الفرق بين هذا الموضع والموضع السابق: تختلف ألفاظ هذا الموضع عن سابقه في أمرين :

١– أنَّ موضع سورة الأنعام صُدِّر بالواو ، وموضع سورة يونس صُدِّر بالفاء .

٢– أنَّ موضع سورة الأنعام ختم بـ﴿ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ وموضع يونس ختم بـ﴿ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾

وعن سرِّ مجيء موضع سورة الأنعام بالواو ، ومجيء هذا الموضع بالفاء :

---

(١) إرشاد العقل السليم (٣/ ١١٩) . وينظر : تفسير المنار (٧/ ٢٨٧) ، ومحاسن التأويل (٤/ ٣٣٢) .

(٢) التفسير القرآني (٦/ ٩٧٤) .

(٣) التفسير الوسيط لطنطاوي (٧/ ٤٢).

(٤) زهرة التفاسير (٧/ ٣٥٣٦) .

١- قيل : إنَّ آية سورة الأنعام ليس ما قبلها سببًا لما بعدها فجاءت بالواو المؤذنة بالاستئناف .

وآية يونس : ما قبلها سبب لما بعدها ، فجاءت بالفاء المؤذنة بالسببية من إشراكهم سببًا في أظلميتم ولبْثه فيهم عمرًا من قبله وعلمهم بحاله سبب لكونهم أظلم ، كأنه قيل: إذا صحَّ عندكم أنه صِدق فمن أظلم ممن افترى (١).

٢- وقيل : لأَنَّ ما تقدم في سورة الأنعام عُطِف بعضه على بعض بالواو، وهو قوله : ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (٢) فناسبها مجيء الواو .

وأَمَّا في سورة يونس فما تقدم عطف بعضه على بعض بالفاءِ ، وهو قوله : ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ﴾ (٣) فناسبها مجيء الفاء (٤) .

وعن سرِّ ختم موضع سورة الأنعام بـ ﴿الظَّالِمُونَ﴾ وهذا الموضع بـ﴿ الْمُجْرِمُونَ ﴾:

قال الكرماني وغيره : ختم الآية في الأنعام بـ﴿الظَّالِمُونَ﴾؛ لتقدم قوله:﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ﴾، وختم الآية في يونس بقوله : ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ أيضًا موافقة لما قبلها وهو قوله: ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (٥) فوصفهم بأَنَّهم مجرمون (١) .

---

(١) كشف المعاني في المتشابه من المثاني (ص: ١٥٨) .

(٢) سورة الأنعام من الآية :١٩ .

(٣) سورة يونس من الآية : ١٦.

(٤) البرهان في توجيه متشابه القرآن (ص: ١٠٦) ، وبصائر ذوي التمييز (١/ ١٩١) ، ومعترك الأقران (٣/ ٥٠) .

(٥) سورة يونس من الآية : ١٣ .

الموضع الثالث : قوله : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ [٢].

السياق الوارد فيه هذا الموضع :

ورد هذا الموضع في سياق الحديث عن الكفرة المكذبين بالله واستكبارهم ، فبعد أن ذكر في الآية السابقة عاقبة المكذِّبين بآياته المستكبرين عن قبولها والإذعان لها- ذكر هنا أنَّ من أشدّهم ظلمًا من يتقولون على الله الكذب [٣].

قال الغرناطي : هذه الآية تقدَّمها وعيد منْ كذَّب بآيات الرسل واستكبر عنها وأنهم أهل الخلود في النار ، فناسب هذا قوله : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ [٤].

والمراد بافتراء الكذب : التقوّل عليه سبحانه ،كأن ينسب إليه ما لم يقُلْه ، أو يُوجب على عباده ما لم يوجبه ، أو تحريم ما أحلَّه أو تحليل ما حرَّمه ، ونحو ذلك من الافتراء [٥].

والمراد بتكذيب الآيات : القرآن ، أو ما هو أعمّ ، كالمعجزات ، وإنكار الحجج ،والدلائل الدّالة على وحدانية الله ونبوّة أنبيائه [٦] .

([١]) البرهان في توجيه متشابه القرآن (ص: ١٠٦) ، وينظر : بصائر ذوي التمييز (١/ ١٩١) ، وفتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن (١/ ١٦١) ، وملاك التأويل (١/ ١٤٩) ، وكشف المعاني (ص: ١٥٨) .

([٢]) سورة الأعراف الآية : ٣٧ .

([٣]) تفسير المراغي (٨/ ١٤٧)، وينظر : زهرة التفاسير (٦/ ٢٨٢٩) .

([٤]) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل (١/ ١٤٩) بتصرف .

([٥]) تأويلات أهل السنة (٤/ ٤١٤) ، وتفسير المنار (٨/ ٣٦٦) ، وتفسير المراغي (٨/ ١٤٧) .

([٦]) جامع البيان (١٢/ ٤٠٨) ، وتأويلات أهل السنة (٤/ ٤١٤) ، والتفسير الكبير (١٤/ ٢٣٦) .

والتعبير بـ﴿أَوْ﴾ ؛ لبيان أنَّ الافتراء والتكذيب وحدَه بالغٌ غاية الإفراط في الظلم ، فكيف وهم قد جمعوا بين الأمرين ؟ [١] . كما سبق ذكره .

والموصوفون بهذا الوصف : الكفار والمكذِّبون على العموم . وسبق ذكره .

ووصف هؤلاء بذلك ؛ لأنَّ الظلم اعتداء على حقٍ ، وأعظم الحقوق هي حقوق الله تعالى ، وأعظم الاعتداء على حقِّ الله الاعتداء عليه بالاستخفاف بجنابه العظيم ، وذلك بأن يكذِّب بما جاءه من قِبله ، أو بأن يكذب عليه فيبلِّغ عنه ما لم يأمر به ، فإن جمع بين الأمرَيْن فقد عطَّل مراد الله تعالى من جهتين: جهة إبطال ما يدلُّ على مراده ، وجهة إيهام الناس بأنَّ الله أراد منهم ما لا يريده الله [٢].

عقوبة هؤلاء : وقوله : ﴿أُولَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ استئناف بياني ناشئ عن الاستفهام في قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ ؛لأنَّ التهويل المستفاد من الاستفهام يسترعي السامع أن يسأل عمَّا سيلاقونه من الله الذي افتروا عليه وكذبوا بآياته [٣] .

وجاء باسم الإشارة ؛ ليدلَّ على أنَّ المشار إليهم أحرياء بأن يصيبهم العذاب [٤] .

والمراد بـ « الكتَاب » في قوله : ﴿يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قيل: اللوح المحفوظ ، وحظّهم فيه العذاب والسخط . وقال ابن عباس وابن جبير: يريد من الشقاء والسعادة التي كتبت له وعليه . وقيل: ما كتب لهم من الأرزاق والأعمال والأعمار . وقيل : سواد الوجوه ، وقيل غير ذلك [٥].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٣/ ١١٩) ، وتفسير المنار (٧/ ٢٨٧) ، ومحاسن التأويل (٤/ ٣٣٢) .

(٢) التحرير والتنوير (٨ / ١١٢) باختصار.

(٣) التحرير والتنوير (٨/ ١١٣) بتصرف .

(٤) السابق (٨/ ١١٣) .

(٥) جامع البيان (١٢/ ٤٠٨) ، والمحرر الوجيز (٢/ ٣٩٧) ، وزاد المسير (٢/ ١١٧) ، والتفسير الكبير (١٤/ ٢٣٥) ، وتفسير القرطبي (٧/ ٢٠٣) ، وغرائب القرآن (٣/ ٢٣١) ، وإرشاد العقل السليم (٣/ ٢٢٦) .

وعلى كلِّ حال : فهذه الجملة – وما يتبعها – فيها ما يشعرنا بأنَّ الله سيجازيهم أشد الجزاء على ظلمهم ، وأنَّ مصيرهم النار . قال تعالى : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾

[1] أي : حتى إذا جاءتهم ملائكة الموت ليقبضوا أرواحهم ، قالوا لهم موبّخين: أين الآلهة التي كنتم تعبدونها من دون الله لتدرأ عنكم الموت ؟ فيجيبون: تبرأوا منَّا ، وتركونا وغابوا عنَّا ، وشهدوا على أنفسهم مُقرِّين بأنهم كانوا كافرين [2].

وهنا يصدر عليهم حكم الله بقوله : ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ﴾ [3].

قال الرازي : هذه الآية من بقية شرح أحوال الكفار، وهو أنه تعالى يدخلهم النار[4].

ثانيًا : الجمع بين افتراء الكذب على الله ، وادِّعاء النبوَّة :

ورد هذا في قوله: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ

(١) سورة الأعراف من الآية : ٣٧ .

(٢) المنتخب في تفسير القرآن الكريم للجنة من علماء الأزهر (ص: ٢٠٩) [ط/ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – مصر، ط/ ثامنة عشر، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٥ م] . وينظر / التفسير الوسيط لطنطاوي (٥/ ٢٦٩) .

(٣) سورة الأعراف، الآية : ٣٨ .

(٤) التفسير الكبير (١٤/ ٢٣٧) ، وينظر: غرائب القرآن (٣/ ٢٣٢) ، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٥/ ٢٦٩) ..

وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (١) .

السياق الوارد فيه هذا الموضع :

ورد هذا الموضع في سياق الحديث عن المشركين وما زعموه ، وقد سبقه الحديث عن القرآن وبعض أوصافه .

وفي مناسبة هذا، قال الرازي : اعلم أنه تعالى لما شرح كون القرآن كتابًا نازلًا من عند الله وبيّن ما فيه من صفات الجلالة والشرف والرفعة – ذكر عقيبه ما يدلّ على وعيد من ادَّعى النبوة والرسالة على سبيل الكذب والافتراء فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ (٢) .

الموصوفون بهذا الوصف :

الموصوف هنا هم كفار مكة ، كما هو إشعار السياق ، وجرمهم الذي جاء في هذا الموضع أحد الأمور التالية :

الأول : افتراء الكذب على الله : والمقصود بافتراء الكذب هنا ادعاء النبوة والرسالة من عند الله . ولا مانع من حمله على العموم ، فكل من نسب إلى الله تعالى ما هو بريء منه ، أو تقوَّل عليه كان داخلا تحت هذا الوعيد (٣) .

الثاني: ادِّعاء نزول الوحي : قال تعالى :﴿أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ أي: قال بأنَّ الله أوحى إليَّ بالرسالة أو النبوة مع أنه كاذب في دعواه ، فإنَّ الله ما أوحى إليه شيئًا .

---

(١) سورة الأنعام الآية : ٩٣ .

(٢) التفسير الكبير (١٣/ ٦٦) .

(٣) ينظر: التفسير الكبير (١٣/ ٦٧) .

قيل : نزل هذا في مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة ، وقيل : نزلت في الأسود العنسي صاحب صنعاء ، وقيل في غيرهما [١].

وعلىٰ كلِّ حالٍ : فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فيدخل في هذه الآية كل من افترىٰ علىٰ الله كذبًا ، وكل من ادَّعىٰ الوحي والنبوة في كل زمان [٢].

وقد فرَّق الرازي بين القولين فقال : في الأول كان يدَّعي أنه أوحي إليه وما كان يكذِّب بنزول الوحي علىٰ محمد صلىٰ الله عليه وسلم . وأمَّا في هذا القول ، فقد أثبت الوحي لنفسه ونفاه عن محمد عليه الصلاة والسلام ، وكان هذا جمعًا بين نوعيْن عظيمين من الكذب ، وهو إثبات ما ليس بموجود ونفي ما هو موجود [٣].

فإن قيل: كيف أفرد قوله: ﴿أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ من قوله: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾ وذاك مفترٍ أيضًا ؟ فعنه جوابان :

١- أنَّ الوصفين لرجل واحد ، وصف بأمر بعد أمر ليدلَّ علىٰ جرأته .

قال الآلوسي : ﴿أَوۡ﴾ للتنويع يعني أنه تارة ادعىٰ أنَّ الله تعالىٰ بعثه نبيًّا ، وأخرىٰ أن الله تعالىٰ أوحىٰ إليه ، وإن كان يلزم النبوة في نفس الأمر الإيحاء ويلزم الإيحاء النبوة [٤].

([١]) تنظر هذه الآثار في جامع البيان (١١/ ٥٣٦) ، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (ت: ٣٢٧هـ) (٤/ ١٣٤٧)[ط/مكتبة نزار الباز – السعودية ط/ثالثة – ١٤١٩ هـ] وأسباب النزول للواحدي (ص: ٢٢٠)

، وتفسير القرطبي (٧/ ٣٩) ، وتفسير ابن كثير (٣/ ٣٠٢) ، ولباب التأويل (٢/ ١٣٦) ، والدر المنثور (٣/ ٣١٧) .

([٢]) جامع البيان (١١/ ٥٣٦) ، والمحرر الوجيز (٢/ ٣٢٣) ، والتفسير الكبير (١٣/ ٦٦) ، والتفسير الوسيط (٥/ ١٣٠) .

([٣]) التفسير الكبير (١٣/ ٦٦) .

([٤]) روح المعاني (٤/ ٢١١) .

٢- أنَّ هذا من باب عطف الخاص على العام ؛ لأنه ليس كل مفترٍ على الله يدعي أنه أوحي إليه (١) .

وقيل : أفرد بالذِّكر ؛ لأنه لما اختصَّ بمزيد قبح من بين أنواع الافتراء خُصَّ بالذّكر ، تنبيهًا على مزيد العقاب فيه والإثم (٢) .

الثالث : ادِّعاء الإتيان بمثل القرآن : قال تعالى : ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: ولا أحد أظلم- أيضًا- ممن قال بأني قادر على أن أنزل قرآنًا مثل الذي أنزله الله (٣) .

واختُلف في المراد به على أقوال ، منها :

١- قال ابن عباس: يريد: المستهزئين ، وهو قول الزجاج قال : هذا جواب لقولهم : ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ (٤) (٥) .

٢- أنه عبد الله بن سعد بن أبي سرح . روي أنَّه كان يكتب الوحي للرسول (صلى الله عليه وسلم) فلمَّا نزل قوله: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ (٦) أملاه الرسول (صلى الله عليه وسلم) فلما انتهى إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ (٧) عجب عبد الله منه فقال : ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ ! فقال الرسول(صلى الله

(١) زاد المسير (٢/ ٥٦) ، والبحر المحيط (٤/ ٥٨٥) ، وفتح البيان (٤/ ١٩٤) .

(٢) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٤٧١) ، وينظر : فتح الرحمن (١/ ١٧١) .

(٣) التفسير الوسيط لطنطاوي (٥/ ١٣٠) .

(٤) سورة الأنفال من الآية : ٣١ .

(٥) معاني القرآن للزجاج (٢/ ٢٧٢) ، وينظر : البسيط للواحدي (٨/ ٢٨٦) ، والنكت والعيون (٢/ ١٤٤) ، وزاد المسير (٢/ ٥٥) ، وتفسير القرطبي (٧/ ٣٩) ، والمحرر الوجيز (٢/ ٣٢٢) .

(٦) سورة المؤمنون من الآية :١٢ .

(٧) سورة المؤمنون من الآية :١٤ .

عليه وسلم) هكذا أُنزلتْ ، فسكت عبد الله ، وقال: إن كان محمد صادقًا ، فقد أوحي إليَّ ، وإن كان كاذبًا فقد عارضته (١).

٣- أنها نزلت في النضر بن الحارث ؛ لأنه عارض القرآن ، قال: والطاحنات طحنًا ، والعاجنات عجنًا (٢).

أقول : وعلى فرض صحة سبب نزولٍ فيها إلا أنها عامَّة في كل مدَّعٍ للوحي والنبوة في كل زمان ومكان ، فالعبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السَّبب (٣).

قال ابن عطية : خصَّص المتأولون في هذه الآيات ذكر قوم قد يمكن أن كانوا أسباب نزولها ، ثم هي إلى يوم القيامة تتناول من تعرض شيئًا من معانيها (٤).

ووصف هؤلاء بذلك ؛ لأنهم كذبوا على الله تعالى أشد الكذب ، وأضلوا أنفسهم ، وأضلوا الناس ، وإنَّ هذا النوع الذي يبهت الناس بالباطل هو الذي نشر الأديان الباطلة والأوهام الكاذبة ، وما من عقيدة باطلة تنتشر إلا بظلم هؤلاء ، ومَن تبعهم (٥).

سرّ الجمع بين هذه الأمور في سورة الأنعام :

يعدُّ هذا الموضع أكبر موضع ورد في هذا الأسلوب ، حيث اشتمل على ثلاثة ادعاءات : كما سبق ذكره . ولعلَّ اختصاص سورة الأنعام بهذه الأمور الثلاثة يرجع لكثرة ما ورد فيها من افتراءات المشركين ، وادعاءاتهم ، ومنها ما ذكره الله تعالى : ﴿وَمَا

---

(١) أسباب النزول للواحدي (ص: ٢٢٠) ، والتفسير البسيط (٨/ ٢٨٦) ، والنكت والعيون (٢/ ١٤٤) ، والمحرر الوجيز (٢/ ٣٢٢) ، وزاد المسير (٢/ ٥٥) ، وتفسير القرطبي (٧/ ٣٩) .

(٢) النكت والعيون (٢/ ١٤٤) ، والمحرر الوجيز (٢/ ٣٢٢) ، وزاد المسير (٢/ ٥٥) ، وتفسير القرطبي (٧/ ٣٩).

(٣) ينظر: جامع البيان (١١/ ٥٣٦) ، والمحرر الوجيز (٢/ ٣٢٢) ، واللباب (٨/ ٢٨٧) ، وتفسير المنار (٧/ ٢٨٧) .

(٤) المحرر الوجيز (٢/ ٣٢٣) ، وينظر : التحرير والتنوير (٧/ ٣٧٦) .

(٥) زهرة التفاسير (٥/ ٢٥٩٢) .

قَدۡرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ ﴾ (١) . وقد سبقت الإشارة إلى ذلك .

عقوبة هؤلاء : وقوله تعالى : ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ (٢) .

فيه عرض للمصير الذي يصير إليه كل ظالم ، صوَّر الله تعالى فيه حالهم ، وأرواحهم حين تنتزع من أجسامهم (٣) .

وقد اختُلف فيه فقيل : هو تمثيل لفعل الملائكة في قبض أرواح الظلمة ، وهو عبارة عن العنف في السياق، والتشديد في الإرهاق، من غير تنفيس وإمهال (٤) .

أو كناية عن شدَّة حالهم وأنهم بلغوا في البلاء الشديد إلى حيث يتولَّى بنفسه إزهاقَ روحه .

وقيل : هذا على سبيل الحقيقة ، وذلك عند نزول الموت بهم في الدنيا ، والملائكة باسطو أيديهم لقبْض أرواحهم يقولون لهم أخرجوا أنفسكم من هذه الشَّدائد (٥).

وسواء كان هذا على سبيل التمثيل أو الحقيقة ، فهذا النظم فيه من التهديد والوعيد لهؤلاء الأظلمين ما يفوق تصور المخاطبين .

---

(١) سورة الأنعام من الآية :٩١ .

(٢) سورة الأنعام الآية : ٩٣ .

(٣) ينظر : التفسير القرآني (٤/ ٢٤١) .

(٤) الكشاف (٢/ ٤٦) ، وينظر : مفاتيح الغيب (١٣/ ٦٨) ، واللباب (٨/ ٢٩٠) .

(٥) ينظر :المحرر الوجيز (٢/ ٣٢٣) ، ومفاتيح الغيب (١٣/ ٦٨) ، وتفسير القرطبي (٧/ ٤٢) ، واللباب (٨/ ٢٩٠)

وفتح البيان (٤/ ١٩٥) ، ومحاسن التأويل (٤/ ٤٣٢) .

قال الرازي : أول الآية – أي : ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾ – يفيد التخويف العظيم على سبيل الإجمال ، وقوله بعد ذلك : ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ . . .﴾ كالتفصيل لذلك المجمل ، والمراد بالظالمين الذين ذكرهم (١) .

وبذلك نرى أنَّ الآية الكريمة قد توعدتْ بأشد ألوان الوعيد كل مفترٍ على الله الكذب ، وكل مدَّعٍ أنه يوحى إليه شيء ، وكل من زعم أنه في قدرته أن يأتي بقرآن مثل هذا القرآن.

ثالثًا– الجمع بين افتراء الكذب على الله ، والتكذيب بالحقّ :

ورد هذا في موضعٍ واحد ، قال تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴾ (٢).

السياق الوارد فيه هذا الموضع :

ورد هذا الموضع في سياق الحديث عن مشركي مكة ، وإنعام الله عليهم بنعمة الأمن ، وتركهم للحقّ واتِّباعهم للباطل .

« لما أوفاهم الله ما يستأهلونه من تشنيع أحوالهم وسوء انتظام شؤونهم – جاء في عقبِه بتذييلٍ يجمعها فِي أنَّها افتراءٌ على اللّه وتكذيب بالحق ، ثمَّ جزاهم الجزاء الأَوْفى اللَّائق بحالهم وهو أنَّ النار مثواهم » (٣).

وسبق أن ذكرنا أن التعبير بـ﴿أَوۡ﴾ ؛ لبيان أن الافتراء والتكذيب وحدَه بالغٌ غاية الإفراط في الظلم ، فكيف وهم قد جمعوا بينهما (٤) .

الموصوفون بهذا الوصف :

---

(١) التفسير الكبير (١٣/ ٦٧) ، وينظر :تفسير المراغي (٧/ ١٩٣) .

(٢) سورة العنكبوت من الآية : ٦٨ .

(٣) التحرير والتنوير (٢١/ ٣٤) .

(٤) ينظر : إرشاد العقل السليم (٣/ ١١٩) ، وتفسير المنار (٧/ ٢٨٧) ، ومحاسن التأويل (٤/ ٣٣٢) .

والموصوف هنا : كفار مكة ، وجرمهم أنهم ارتكبوا ظلميْن فاحشين:
الأول : الكذب على الله : وذلك بالزعم أنَّ لله سبحانه شريكًا ، وغير ذلك ممَّا افتروه [١].

الثاني: التكذيب بالحقِ : قال تعالى : ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ والمراد بالحق : رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، أو القرآن ، وقيل : التوحيد [٢]. والظاهر شموله لما يصدق عليه أنه حقّ [٣].

وقوله :﴿ لَمَّا جَاءَهُ ﴾ أي حين مجيئه إيَّاه ، وفيه تسفيه لهؤلاء المشركين حيث لم يُعطوا لأنفسهم فرصة لتَّأمُّل ، بل سارعوا إلى التكذيب أوَّل ما سمعوه [٤] .

ووصف هؤلاء بذلك : لأَنَّ الظلم الاعتداء على أحدٍ بمنعه من حقِّه ، وأشد من المنع أن يمنعه مُستحِقَّه ويُعْطيَه من لا يستحقه ، وأن يلصق بأحد ما هو بريء منه . وهؤلاء قد افتروا على اللَّه فسلبوا عنه ما هو متصِّف به من صفات الإلوهية ، وافتروا الكذب على الرسول (صلى الله عليه وسلم)وأنكروا معجزاته ، ورموه بما هو بريء منه بهتانًا وكذبًا ، فكانوا بمجموع الأمْرين وضعوا أشياء في مواضع لا يمكن أن تكون مواضعها ، فكانوا أهلًا لهذا الوصف [٥].

عقوبة هولاء : وقوله :﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴾ تهديد لمن افترى كذبًا على الله سبحانه .

([١]) الكشاف (٣/ ٤٦٥) ، ولباب التأويل (٣/ ٣٨٥) ، وإرشاد العقل السليم (٧/ ٤٨) ، وروح المعاني (١١/ ١٤) .
([٢]) الكشاف (٣/ ٤٦٥) ، وإرشاد العقل السليم (٧/ ٤٨) ، وفتح القدير (٤/ ٢٤٥)
([٣]) فتح القدير (٤/ ٢٤٥) .
([٤]) الكشاف (٣/ ٤٦٥) ، وإرشاد العقل السليم (٧/ ٤٨) ، وروح المعاني (١١/ ١٤) ، والتحرير والتنوير (٢١/ ٣٥) .
([٥]) التحرير والتنوير (٢١/ ٣٥) بتصرف .

قال ابن عاشور : وهو بيان لجملة : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ وتقرير لها ؛ لأَنَّ في جملة : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ إيذانًا إجماليًّا بجزاء فظيع يترقبهم ، وهو بألفاظه ونظمه يفيد تمكنهم من عذاب جهنم إذ جُعلت مثواهم ، فالمثوي : مَكان الثَّوَاء . وَالثَّواءُ : الْإِقامة الطَّويلة والسُّكنى (١) .

رابعًا- الجمع بين الكذب على الله ، والتكذيب بالصِّدق :

ورد هذا في موضع واحد ، قال تعالى : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ (٢) .

السياق الوارد فيه هذا الموضع :

ورد هذا الموضع في سياق الحديث عن المشركين . فبعد أن ذكر فيما سبق بعض قبائح المشركين- بيَّن هنا أنهم جمعوا بين منكرين : الكذب على الله ، والتكذيب بالصدق (٣) .

قال أبو السعود : هذا النظم مسوق لبيان حال كل من طرفي الاختصام الجاري في شأن الكفر والإيمان لا غير ، أي أظلم من كل ظالم مَن كذَب على الله سبحانه وتعالى (٤) .

والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، أي : مادام الأمر كما ذكرنا من أنكم جميعًا ستقفون أمام ربكم للحساب والجزاء .. فلا أحد أشدّ ظلمًا من هؤلاء الذين كذبوا على الله ، وكذبوا بالصدق (٥) .

الموصوفون بهذا الوصف :

والموصوف هنا : هم المشركون ، وقد ارتكبوا ظُلميْن فاحشين:

---

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ٣٥) باختصار ، وينظر: أنوار التنزيل (٤/ ٢٠٠) ، وروح المعاني (١١/ ١٥) .

(٢) سورة الزمر ، الآية: ٣٢ .

(٣) ينظر : التفسير الكبير (٢٦/ ٤٥١) ،وتفسير المراغي (٢٤/ ٤) .

(٤) إرشاد العقل السليم (٧/ ٢٥٤) بتصرف، وينظر: الكشاف (٤/ ١٢٧) ، والبحر المحيط (٩/ ٢٠٢) .

(٥) التفسير الوسيط لطنطاوي (١٢/ ٢٢٢) بتصرف .

الأول : الكذب على الله تعالى ، فقد اتخذوا الأصنام شفعاء عنده ، وأثبتوا لله ولدًا وشركاء ، وغير ذلك ممَّا زعموه [١] .

الثاني : التكذيب بالصِّدق : والصدق : القرآن ، أو الأمر الذي هو عين الحقِّ ، وهو كل ما جاء به النبيُّ (صلى الله عليه وسلم)[٢] .

والتعبير بقوله : ﴿ إِذۡ جَآءَهُۥٓ ﴾ يدلُّ على أنهم بادروا بتكذيب كل ما جاءهم به الرسول (صلى الله عليه وسلم)من عند ربه بمجرَّد أن سمعوه ، من غير تدبُّرٍ فيه ولا تأمُّل [٣].

والمراد بمجيء الصِّدق إليهم : بلوغ القرآن إيَّاهم ، أيْ سماعهم إيَّاه وفهْمهم ، فإنَّه بلسانهم وجاء بأفصح بيانٍ بحيث لا يُعرض عنه إلَّا مكابر معاند [٤].

واقْتُصر في التَّعليل على أَنَّهم كذبوا على اللَّه وكذَّبوا بالصِّدق ؛ لأنَّ هذيْن الكذِبين هما جماع ما أتوْا به من الظُّلم [٥] .

وعدل عن الإتيان بضميرهم إلى الإتيان بالموصول ؛ لما في الصِّلة من الإيماء إلى وجْه كونهم أَظْلم النَّاس [٦] .

ووصُف هؤلاء بذلك : لأنهم جمعوا بين طرفي الباطل ، كذبوا على الله ، وكذبوا على رسول الله ، قبلوا الباطل الذي لم يدلّ عليه دليل ، وردُّوا الحق المؤيد بالحجة والبرهان . فجمعوا بذلك بين ظُلم الاعتداء على حُرمة الربِّ بالكذب عليه ، وظُلم الرسول

---

(١) الكشاف (٤/ ١٢٧) ، والتفسير الكبير (٢٦/ ٤٥١) ، والبحر المحيط (٩/ ٢٠٢) ، وإرشاد العقل السليم (٧/ ٢٥٤) .

(٢) تفسير القرطبي (١٥/ ٢٥٦) ، والمحرر الوجيز (٤/ ٥٣١) ، وإرشاد العقل السليم (٧/ ٢٥٤) ، وروح المعاني (١٢/ ٢٥٧) .

(٣) الكشاف (٤/ ١٢٨) ، وإرشاد العقل السليم (٧/ ٢٥٤) ، والتحرير والتنوير (٢٤/ ٦) ،والوسيط (١٢/ ٢٢٢).

(٤) التحرير والتنوير (٢٤/ ٦) بتصرف يسير.

(٥) السابق (٢٤/ ٦) .

(٦) التحرير والتنوير (٢٤/ ٦) .

(صلى الله عليه وسلم)بتكذيبه ، وظُلم القرآن بنسبته إلى الباطل ، وظُلم أنفسهم بإقحامها في العذاب الخالد (١) .

-كما أنَّ هؤلاء قد قطعوا على أنفسهم كل عذرٍ يعتذرون به عن هذا الكفر الذي هم فيه ، وذلك أنَّه إذ كان لهم عذر بالكذب على الله لجهلهم ، فإنه لا عُذر لهم بتكذيب الحقّ الذي جاءهم .. إذ كان من البيان والوضوح بحيث لا يكذّب به إلا كل معاند مكابر (٢) .

وللإمام الرازي كلام طيِّب حول هذا يجدر بنا أن نذكره لأهميته ، يقول : لما بيَّن الله الأمور على الوجه المذكور ولم يؤمن به أحد بيَّن أنهم أظلم مَن يكون ، لأنَّ الظلم وضع الشيء في غير موضعه ، فإذا وضع واحد شيئًا في موضع ليس هو موضعه يكون ظالمًا فإذا وضعه في موضع لا يمكن أن يكون ذلك موضعه يكون أَظلم ، فالله تعالى لا يمكن أن يكون له شريك وجعلوا له شريكًا .

فلو كان ذلك في حق ملِكٍ لكان ظلمًا يستحق من الملِك العقاب الأليم ، فكيف إذا جُعل الشريك لمن لا يمكن أن يكون له شريك . وأيضًا من كذَّب صادقًا يجوز عليه الكذب يكون ظلمًا فمن يكذِّب صادقًا لا يجوز عليه الكذب كيف يكون حاله ؟ فإذًا ليس أظلم ممن يكْذب على الله بالشرك ويكذِّب الله في تصديق نبيِّه ، والنبيّ في رسالة ربِّه ، والعجب من المشركين أنهم قبلوا المتخَذَ من خشبٍ منحوت بالإلهية ، ولم يقبلوا ذا حسب منعوت بالرسالة ؟ (٣).

---

(١) السابق .

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٩٩) ، والتفسير القرآني للقرآن (١٢/ ١١٥٢) .

(٣) التفسير الكبير (٢٥/ ٧٧) .

عقوبة هؤلاء : وقوله : ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ بيان لمضمون جملة : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ ، أَيْ : أَنَّ ظُلمهم أوجب أنْ يكون مثواهم ومقرُّهم فِي جهنَّم [١].

والاستفهام للتقرير ، والمعنى : أليس يستحقون الاستقرار فيها وقد فعلوا ما فعلوا [٢] .

وأيًّا ما كان : فالمعنى على كفاية جهنم مجازاة لهم ، كأنه قيل: أليست جهنم كافية للكافرين مثوًى ، أي هي تكفي عقوبة لكفرهم وتكذيبهم [٣].

---

(١) المحرر الوجيز (٤/ ٥٣١) ، والتحرير والتنوير (٢٤/ ٦) .

(٢) فتح القدير (٤/ ٢٤٥) ، وفتح البيان (١٠/ ٢١٩) .

(٣) روح المعاني (١٢/ ٢٥٨) .

المبحث الرابع :

المواضع التي تحدثت عن الإعراض عن آيات الله .

الموضع الأول : قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ (١) .

السياق الوارد فيه هذا الموضع : هو الحديث عن الكفَّار وجدالهم بالباطل ، فبعد أن بيَّن الله تعالى حالهم من مجادلة الرّسل ، واتّخاذهم آيات الله وما أُنذروا هزوًا – بيَّن الله هنا سوء عاقبة المعرضين عن آياته ، وبيان أَنَّ ما فعلوه هو أشدّ الظُّلم (٢) .

والاستفهام للنفي ، كما سبق بيانه .

والموصوفون بهذا الوصف : هنا مشركو العرب الَّذين ذُكِّروا بآيات الله تعالى فأعرضوا عنها (٣) .

وجوِّز أن يكون المراد منه المتَّصف بما في حيِّز الصلة كائنًا مَن كان ، ويدخل فيه مشركو مكة دخولًا أوليًّا (٤) .

والمراد بالآيات القرآن الكريم ، وهو قول الأكثرين ، ولذلك رجع إليه الضمير مذكَّرًا في قوله : ﴿ أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ (٥) .

---

(١) سورة الكهف الآية: ٥٧ .

(٢) اللباب في علوم الكتاب (١٢/ ٥١٦) ، والتحرير والتنوير (١٥/ ٣٥٤) ، والوسيط لطنطاوي (٨/ ٥٤٢) .

(٣) روح المعاني (٨/ ٢٨٦) ، والتحرير والتنوير (١٥/ ٣٥٤) .

(٤) روح المعاني (٨/ ٢٨٦) .

(٥) الكشاف (٢/ ٧٢٩) ، ومدارك التنزيل (٢/ ٣٠٧) ، والبحر المحيط (٧/ ١٩٤) ، وغرائب القرآن ٤٤٠) ، وإرشاد العقل السليم (٥/ ٢٣٠) ، وروح المعاني (٨/ ٢٨٦) .

والمراد بالإعراض عنه : ترك تدبره ، وكونه لا يتَذَكَّر حين ذُكِّر ولم يتدبَّرْ ونسى عاقبة ما قدَّمتْ يداه من الكفر والمعاصي غير مُفكِّر فيها ولا ناظر في أَنَّ المحسن والمسيء يجزيان بما عملًا [١].

ويجوز أن يراد بها جنس الآيات ويدخل القرآن دخولًا أوليًا [٢].

وبناء الأظلميَّة على ما في حيِّز الصلة من الإعراض ؛ للإشعار بأنَّ ظُلم من يجادل في الآيات ويتخذها هزوًا خارج عن الحدِّ [٣] .

وجاء قوله : ﴿ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا ﴾ بفاء التَّعْقيب إشارة إلى أنَّ هؤلاء الأَظلمين سارعوا بالإعراض ولم يتركوا لأنفسهم مُهلة النَّظر والتَّأمُّل [٤].

﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾ أي ترك كفره ومعاصيه فلم يتبْ منها ، فالنسيان هنا بمعنى الترك ، قيل: المعنى نسي ما قدَّم لنفسه وحصل من العذاب ، والمعنى متقارب [٥].

ووصُف هؤلاء بذلك ؛ لأنَّ من أشدِّ الظلم ظلم الإنسان لنفسه ، وتعريضها لسخط الله وغضبه ، وهؤلاء قد ظلموا أنفسهم فلم يعطوا فرصة لمذَكِّرٍ يذكِّرهم بآيات الله التي أنزلها على رسوله (صلى الله عليه وسلم) بل سارعوا في الإعراض عنها ونبذوها وراء ظهورهم ونسوا ما ارتكبوه من الكفر والمعاصي فلم يتوبوا عنها [٦].

---

(١) الكشاف (٢/ ٧٣٠) ، والبحر المحيط (٧/ ١٩٤) .

(٢) روح المعاني (٨/ ٢٨٦) ، وينظر : فتح القدير (٣/ ٣٥٠) ، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٨/ ٥٤٢) .

(٣) إرشاد العقل السليم (٥/ ٢٣٠) ، وروح المعاني (٨/ ٢٨٦) .

(٤) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٥٤) ، وينظر : زهرة التفاسير (٩/ ٤٥٥١) .

(٥) تفسير القرطبي (١١/ ٧) ، وينظر : فتح القدير (٣/ ٣٥٠) ، والتحرير والتنوير (١٥/ ٣٥٤) ، وفتح البيان (٨/ ٧٢) .

(٦)التفسير القرآني (١١/ ٦٢٥) ، والتحرير والتنوير (١٥/ ٣٥٤) ، والوسيط لطنطاوي (٨/ ٥٤٢) .

وقوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ : الأَكِنَّةُ : جمع كِنَان ، وهو الغطاء الذي يكنّ فيه الشيء ، أَيْ يُستر [١].

﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ مفعول له ، أي كراهة أن يفقهوه : ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي جعلنا فيها ثقلًا يمنعهم من استماعه : ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ .

ونفي الهداية عن هؤلاء لا يتنافى مع من أسلم من المشركين: « لأنَّ الآية في أُناس عَلِم الله تعالىٰ مماتهم على الكفر من مشركي مكة حين نزولها ، فلا ينافي الإخبار بالطبع وأنهم لا يؤمنون ، ويحتمل أنَّ المراد : جميع المشركين ، على معنىٰ : وإن تدعُهم إلى الهُدىٰ جميعًا فلن يهتدوا جميعًا ، وإنما يهتدي بعضهم » [٢].

عقوبة هؤلاء : وقوله : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ [٣] تعليل لإعراضهم ونسيانهم [٤] .

وفيه ما يشير إلىٰ عقاب الله تعالىٰ لهؤلاء ، وأنَّ الله طبع على قلوبهم ، ولم يوفقهم للهداية.

يُضاف إلىٰ ذلك استفتاح الآية بقوله : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ وهو يحمل من الوعيد الشديد ما لا يتصور .

وعلىٰ كلٍّ : فقد جعل الله الأكنَّة علي قلوب هؤلاء جزاء وفاقًا ؛ لما بادروا إليه من الكفر والتكذيب ، قال تعالىٰ : ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [١] بسبب كفرهم [٢] .

([١])جمهرة اللغة لابن دريد (١/ ١٦٦) ، والصحاح للجوهري (٦/ ٢١٨٨) ، والمفردات (ص: ٧٢٧)، ولسان العرب (١٣/ ٣٦٠) .

([٢]) روح المعاني (٨/ ٢٨٧) بتصرف ، وينظر :المحرر الوجيز (٣/ ٥٢٦) ، وتفسير القرطبي (١١/ ٧)، والبحر المحيط (٧/ ١٩٥) .

([٣]) سورة الكهف الآية: ٥٧ .

([٤]) إرشاد العقل السليم (٥/ ٢٣٠) ، وفتح القدير (٣/ ٣٥٠) ، وفتح البيان (٨/ ٧٢) .

الموضع الثاني : قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ (٣) .

السياق الوارد فيه هذا الموضع : هو الحديث عن حال الكافرين في الجملة . فبعد أن بيّن الله تعالى حال من قابل آياته بالسجود والتسبيح والتحميد – ذكرَ حال من قابل آيات الله بالإعراض (٤) .

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ عطف على جملة : ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا﴾ (٥) حيث اقتضت أنَّ الذين قالوا : ﴿أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (٦) ليسوا كأُولئك فانتقل إلى الإخبار عنهم بأنَّهم أشدُّ النَّاس ظلمًا (٧) .

وجاء عطف : ﴿أَعْرَضَ﴾ بـ ﴿ثُمَّ﴾ لقصد الدَّلالة على تراخي رُتْبة الإعراض عن الآيات بعد التَّذكير به تراخي استبعادٍ وتعجيب من حالهم ، وأنه مما ينبغي أن لا يكون (٨) .

وقال أبو السعود : ﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد الإعراض عنها عقلًا ؛ لأنَّ الإعراض عن الآيات مع غاية وضوحها وإرشادها إلى سعادة الدارين مستبعد في حكم البداءة الثابتة وموازين العقول الراجحة (٩) .

---

(١) سورة النساء من الآية : ١٥٥ .

(٢) إرشاد العقل السليم (٥/ ٢٣٠) ، وأضواء البيان (٣/ ٣١٢) .

(٣) سورة السجدة الآية : ٢٢ .

(٤) ينظر : إرشاد العقل السليم (٧/ ٨٦) ، وروح المعاني (١١/ ١٣٤) ، وتفسير المراغي (٢١/ ١١٦) .

(٥) سورة السَّجْدَة من الآية : ١٥ .

(٦) سورة السَّجْدَة من الآية : ١٠ .

(٧) ينظر : التحرير والتنوير (٢١/ ٢٣٣) .

(٨) فتح البيان (١١/ ٣١) ، والتحرير والتنوير (٢١/ ٢٣٣) .

(٩) إرشاد العقل السليم (٧/ ٨٦) ، وينظر : الكشاف (٣/ ٥١٥) ، وروح المعاني (١١/ ١٣٤) .

وعن مناسبة مجيء فعل : ﴿ أَعۡرَضَ ﴾ في الموضع السابق معطوفًا على ما قبله بالفاء ، وهنا بـ﴿ثُمَّ﴾ :

– قيل : مجيئه في سورة الكهف بالفاء ؛ لأنَّ المقصود فيها الكفار الأحياء ، فقد كانوا يسارعون بالإعراض ولم يعطوا أنفسهم مُهلة للتَّأمُّل والبحث فأعرضوا عقيب ما ذُكِّروا ، ونسوا ذنوبهم وهم بعد متوقع منهم أن يؤمنوا . وأمَّا هنا – أي في السجدة – ففي الكفار الأموات ، بدليل قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ ﴾ (١) أي ذُكِّروا مرة بعد أخرى ، وزمانًا بعد زمان ، ثمَّ أعرضوا عنها بالموت فلم يؤمنوا ، وانقطع رجاء إيمانهم (٢) .

–وقيل : لأنه ذكر في الكهف إرسال الرسل وتكذيب قومهم إياهم ، وقد وقع تكذيب المكذبين عند دعاء الرسل إيَّاهم معقبًا به دعاءهم . وأمَّا آية السجدة فلم يقع فيها ذكر إرسال الرسل ، ولا جرى في الآية ذكر تكذيب ، ولن يعرف المعرض عقابه حتى يباشر الجزاء ، والجزاء متأخر ، فناسب ذلك العطف بـ﴿ثُمَّ﴾ المقتضية للمهلة (٣).

والموصوفون بهذا الوصف : هم المجرمون – على العموم– كما يدلُّ عليه السياق ، ويدخل فيه من أعرض عن آيات الله تعالى دخولًا أوليًا (٤) .

ويجوز أن يراد بالمجرم المُعرض أحد المشركين الذين سبقت الإشارة إليهم في قوله : ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ ﴾ (٥) قيل : نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي

---

(١) سورة السجدة من الآية : ١٢.

(٢) درة التنزيل (١/ ٨٧٦) ، والبرهان في توجيه متشابه القرآن (ص: ١٧٠) ، وكشف المعاني (ص: ٢٤١) ، وبصائر ذوي التمييز (١/ ٣٠٠) ، وغرائب القرآن (٤/ ٤٤٠) ، وفتح البيان (٨/ ٧٢) ، والتحرير والتنوير (١٥/ ٣٥٤) .

(٣) ينظر : ملاك التأويل (٢/ ٣٢٢) .

(٤) ينظر : إرشاد العقل السليم (٧/ ٨٦) ، وفتح البيان (١١/ ٣١) ، وروح المعاني (١١/ ١٣٤) .

(٥) سورة السجدة من الآية : ١٨ .

مُعَيط قال لعليّ بن أبي طالب (عليه السّلام) : أنا أحدّ منك سنانًا ، وأبسط منك لسانًا ، وأملأ للكتيبة منك . فقال له عليٌّ: اسكت فإنما أنت فاسق ، فنزلت هذه الآية ، وقيل : إنها نزلت في عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وأبي جهل [١] .والقول بالعموم هو الراجح .

وهناك من فسَّر المجرمين – هنا – بالمشركين [٢] .

ولاشكَّ أنَّ الكلام في ذمِّ المجرمين على وجه العموم ، كما دلَّ عليه السياق الذي افتتح بقوله :﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [٣] [٤].

ووصف هؤلاء بهذا الوصف لما يلي:

١– أنهم ظلموا أنفسهم بإطفاء جذوة الإيمان التي أودعها الله فطرتهم . وحين أبوّا أن يستجيبوا لمن يدعوهم إلى تصحيح ما اعتقدوه [٥] .

٢– أنهم ظلموا أنفسهم بحرمانها من التَّأمُّل فيما فيه منفعة لهم في الدارين .

٣– أنهم ظلموا حقَّ ربِّهم إذْ لم يمتثلوا ما أراد منهم ، وكفروا به ، وظلموا أنفسهم بتكذيب رسول الله (صلى الله عليه وسلم)والإعراض عنه [٦].

عقوبة هؤلاء : وقوله : ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ [٧] بيان لجزاء هؤلاء ، أي : إنَّا سننتقم أشدّ الانتقام من هؤلاء ، والجملة مستأنفة استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن تفظيعِ ظُلم الَّذي ذُكِّر بآيات ربِّه فأعرض عنها ؛ لأَنَّ السَّامع يترَّقب جزاء ذلك الظَّالم [١] .

---

(١) الوسيط للواحدي (٣/ ٤٥٤) ، وتفسير البغوي (٣/ ٦٠٢) ، وزاد المسير (٣/ ٤٤١) ، ولباب التأويل (٣/ ٤٠٦) .

(٢) ينظر معالم التنزيل (٣/ ٦٠٢) ، ولباب التأويل (٣/ ٤٠٦) ، وروح المعاني (١١/ ١٣٤).

(٣) سورة السجدة من الآية : ١٢.

(٤) ينظر : روح المعاني (١١/ ١٣٤) .

(٥) التفسير القرآني (١١/ ٦٢٥) بتصرف .

(٦) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٣٤) بتصرف .

(٧) سورة السجدة من الآية : ٢٢ .

ولم يقل : «إنا منهم منتقمون» قيل : ليؤذِن بأنَّ علة الانتقام ارتكاب هذا المعرض مثل هذا الجرم العظيم [٢] . وقيل : عدل عن ذِكر ضميرهم ؛ لزيادة تسجيل فظاعة حالهم [٣] . وقيل : لما جعله أظلم الظلمة ثمَّ توعَّد كل المجرمين بالانتقام منه دلَّ على أنَّ الأظلم يصيبه النصيب الأوفر من الانتقام [٤] . والله أعلم .

([١]) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٣٤) ، وتفسير المراغي (٢١/ ١١٦) .

([٢]) ينظر : روح المعاني (١١/ ١٣٤) .

([٣]) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٣٤) .

([٤]) الكشاف (٣/ ٥١٥) ، وأنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر الرازي (ت: ٦٦٦هـ) (ص: ٤١٠) [ط/ دار عالم الكتب ، الرياض ط/ أولى، ١٤١٣ هـ، ١٩٩١ م] .

الخاتمة

الحمد لله ، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

أَمَّا بعد :

فقد مَنَّ الله عزَّ وجلَّ عليَّ ببعض النتائج من هذا البحث أذكر منها ما يلي:

١- أنَّ الاستفهام في هذا الأسلوب خرج عن معناه الحقيقي إلى معنى آخر لفائدة .

٢- هذا الأسلوب وجه من وجوه إعجاز القرآن ، وجانب من جوانب بلاغته .

٣- يمثل هذا الأسلوب إيجازاً بليغًا في التعبير عن أمور عظيمة للمستفهم عنه يجعل القلب يذهب في تصورها كل مذهب .

٤- أكثر استعمالات هذا الأسلوب وردت فيما يتعلق بالافتراء على الله الكذب ؛لأنه أعظم الظلم .

٥- أنَّ هذا الأسلوب ورد خمس عشرة مرة في القرآن ، في عشر سور ، منه تسعة مواضع صُدرت بالواو ، وستة صُدرت بالفاء .

٦- أنَّ جميع السُّوَر التي ورد فيها هذا الأسلوب سُوَر مكية ما عدا سورة البقرة فهي مدنية .

٧- أنَّ أكثر سورة ورد فيها هذا الأسلوب سورة الأنعام ورد فيها في أربعة مواضع ، وتلتها سورة البقرة في موضعين ، والكهف في موضعين .

٨ - أظلم طوائف الناس - كما صرَّحتْ الآيات - المانعون مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، والكاتمون لشهادة الله ، والمفترون على الله الكذب ، والمكذِّبون بآيات الله ، والمعرضون عنها .

٩- أنَّ الأسباب التي جعلت هؤلاء أظلم الناس :

ا- منعهم مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ، والسعي في خرابها . ب- كتمان شهادة الله ، كما سبق بيانها .

ج- افتراء الكذب على الله بكل صوره وأشكاله : ومنها : اتخاذ الشريك ، وعبادة الأصنام من دون الله ، وبقوله الملائكة بنات الله، وهؤلاء شفعاؤنا عند الله ،وأنَّ له

صاحبه وولدًا ، تحليل ما حرم الله ، وتحريم ما أحلَّ الله . وتكذيب القرآن والنبي عليه الصلاة والسلام ، ووصفه بخلاف أوصافه، وادعاء النبوة ، أو الزعم القدرة على معارضة القرآن ، والإعراض عن آيات الله ، أو الصدّ عنها .

١٠- أنَّ غالب الأمور التي وصفت بهذا الوصف إنما تتعلق بأصول الاعتقاد ، وأصول الدين .

١١- أنَّ هذه الأمور وصفت بذلك ؛ لأنها تتعلق بالله ، أو بكتابه ، أو نبيه (صلى الله عليه وسلم)، ولا شك أنَّ المتطاول على الخالق ومفتري الكذب عليه وعلى كتابه وعلى نبيه هو أظلم الناس، بل ليس هناك من هو أظلم منه .

المصادر والمراجع

أولًا – القرآن الكريم .

ثانيًا– الكتب الأخرى :

١– الإتقان في علوم القرآن للإمام جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ) ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م .

٢– أحكام القرآن للقاضي للإمام أبي بكر ابن العربي المالكي (ت: ٥٤٣هـ) ، ط/ دار الكتب العلمية– بيروت ط/ثالثة ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م .

٣– إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود محمد بن أحمد العمادي (ت: ٩٨٢هـ)

،ط/ دار إحياء التراث العربي – بيروت .

٤– أسباب النزول لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (ت: ٤٦٨هـ) ، ط/ دار الإصلاح – الدمام ، ط/ثانية، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م .

٥– أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين الشنقيطي (ت: ١٣٩٣هـ) ، ط/ دار الفكر – بيروت ط/ ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م.

٦– إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين درويش (٥/ ٥٤٩) ، ط/ (دار ابن كثير – دمشق – بيروت) ط/رابعة، ١٤١٥ هـ.

٧– أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (ت: ٦٨٥هـ) ، ط/ دار إحياء التراث العربي – بيروت

ط/أولى – ١٤١٨ هـ .

٨– البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ) ، ط/ دار الفكر – بيروت ١٤٢٠ هـ .

٩– البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان لمحمود بن حمزة الكرماني، (ت: نحو ٥٠٥هـ) ط/ دار الفضيلة بدون تاريخ .

١٠- البرهان في علوم القرآن لبدر الدين محمد بن عبد اللَّه بن بهادر الزركشي (ت: ٧٩٤هـ)، ط/ دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه ط/ أولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م.

١١- البسيط لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (ت: ٤٦٨هـ) ، ط/ عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ط/ أولى، ١٤٣٠ هـ .

١٢- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي (ت: ٨١٧ هـ) ط/ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة .

١٣- تأويلات أهل السنة لأبي منصور الماتريدي (ت:٣٣٣هـ) ، ط/ دار الكتب العلمية - بيروت،
لبنان ط/أولى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م .

١٤- التبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري (ت: ٦١٦هـ)
، ط/ عيسى البابي الحلبي وشركاه ، مصر .

١٥- التحرير والتنوير لسماحة الشيخ /محمد الطاهر ابن عاشور التونسي (ت : ١٣٩٣هـ) ،ط/الدار التونسية للنشر ١٩٨٤م .

١٦- التعريفات لعلي بن محمد بن علي الجرجاني (ت: ٨١٦هـ) ، ط/ دار الكتب العلمية بيروت ، ط/ أولى ١٤٠٣هـ .

١٧-التفسير البلاغي للاستفهام لفضيلة الدكتور /عبدالعظيم إبراهيم المطعني ، ط/ مكتبة وهبة القاهرة ، ط/ أولى ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م .

١٨- تفسير سورتي الفاتحة والبقرة ، للشيخ /محمد بن صالح بن محمد (ت: ١٤٢١هـ) ، ط/ دار ابن الجوزي ، السعودية ، ط/ أولى، ١٤٢٣ هـ .

١٩- تفسير الشيخ / أحمد مصطفى المراغي (ت :١٣٧١هـ) ، ط/ مصطفى البابي الحلبي ١٣٦٥ هـ .
٢٠- تفسير الشعراوي، لفضيلة الشيخ/محمد متولي الشعراوي(ت :١٤١٨هـ) ط/ مطابع أخبار اليوم .
٢١- تفسير القرآن العظيم للحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ) ، ط/ دار طيبة ، ط/ ثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م .
٢٢- التفسير القرآني للقرآن للأستاذ /عبد الكريم الخطيب ط/ دار الفكر العربي – القاهرة .
٢٣- تفسير المنار للشيخ /رشيد رضا (ت: ١٣٥٤هـ) ، ط/ الهيئة المصرية للكتاب ١٩٩٠م .
٢٤- التفسير الوسيط ا.د/ محمد سيد طنطاوي ، ط/ دار نهضة مصر ، الفجالة ط/ أولى .
٢٥- تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري (ت: ٣٧٠هـ) ، ط/ دار إحياء التراث العربي – بيروت ط/أولى، ٢٠٠١م .
٢٦- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان ، للشيخ /عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ت: ١٣٧٦هـ) ، ط/ مؤسسة الرسالة ، ط/أولى ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م .
٢٧- جامع البيان في تأويل آي القرآن للإمام الطبري (ت: ٣١٠هـ) ، ط/ مؤسسة الرسالة بتحقيق
الشيخ / أحمد محمد شاكر ، ط/ أولى ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.
٢٨- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله(صلى الله عليه وسلم) وسننه وأيَّامه ، للإمام البخاري (ت:٢٥٦هـ) ، ط/دار طوق النجاة ، ط/ أولى، ١٤٢٢هـ .
٢٩- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (ت: ٦٧١هـ) ، ط/ دار الكتب المصرية – القاهرة .

٣٠- جمهرة اللغة لأبي بكر ابن دريد الأزدي (ت :٣٢١هـ) ، ط/دار العلم للملايين بيروت ط/أولى ١٩٨٧م .

٣١- حاشية الشهاب علي تفسير البيضاوي (عناية القاضي وكفاية الراضي) لشهاب الدين الخفاجي
المصري (ت: ١٠٦٩هـ) ، ط/ دار صادر – بيروت .

٣٢- دراسات لأسلوب القرآن الكريم للدكتور/ محمد عبد الخالق عضيمة (ت ١٤٠٤ هـ) تصدير: محمود محمد شاكر، ط/ دار الحديث ، القاهرة ، بدون تاريخ .

٣٣- درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي (ت: ٤٢٠هـ) ، ط/ جامعة أم القرى ، مكة ، ط/أولى، ١٤٢٢ هـ .

٣٤- دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ، لمحمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي (ت: ١٣٩٣هـ) ، ط/ مكتبة ابن تيمية – القاهرة ، ط/ أولى ١٤١٧ هـ – ١٩٩٦ م .

٣٥- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ، لأبي العباس أحمد بن يوسف ، المعروف بالسمين
الحلبي (ت :٧٥٦هـ) ، ط/دار القلم – دمشق ، ط/ أولى ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

٣٦- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للإمام شهاب الدين محمود الآلوسي (ت: ١٢٧٠هـ) ط/ دار الكتب العلمية – بيروت ، ط/أولى ١٤١٥ هـ .

٣٧- زاد المسير في علم التفسير لأبي الفرج ابن الجوزي (ت :٥٩٧هـ) ، ط/ دار الكتاب العربي –
بيروت ط/أولى .

٣٨- زهرة التفاسير لفضيلة الشيخ /محمد أبي زهرة (ت: ١٣٩٤هـ) ، ط/ دار الفكر العربي .

٣٩- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري (ت: ٣٩٣هـ) ،

ط/ دار العلم للملايين – بيروت ، ط/ رابعة ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م .
٤٠- غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، لنظام الدين الحسن بن محمد بن حسين النيسابوري (ت: ٨٥٠هـ) ، ط/ دار الكتب العلمية – بيروت ، ط/ أولى – ١٤١٦ هـ .
٤١- فتح البيان في مقاصد القرآن، لأبي الطيب محمد صديق خان القِنَّوجي (ت :١٣٠٧هـ)، ط/المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت .
٤٢- فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لزكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري (ت: ٩٢٦هـ) ، ط/ دار القرآن الكريم ، بيروت – لبنان ط/ أولى، ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣ م .
٤٣- فتح القدير للإمام محمد بن علي الشوكاني (ت: ١٢٥٠هـ) ، ط/ دار ابن كثير، ودار الكلم
الطيب – دمشق، بيروت ،ط/ أولى – ١٤١٤ هـ .
٤٤- الفروق اللغوية لأبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري (ت: نحو ٣٩٥هـ) ،
ط/ دار العلم والثقافة ، القاهرة .
٤٥- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري (ت:
٥٣٨هـ) ط/ دار الكتاب العربي – بيروت ط/ ثالثة ، ١٤٠٧ هـ .
٤٦- كشف المعاني في المتشابه من المثاني لبدر الدين محمد بن جماعة (ت: ٧٣٣ هـ) ، ط/دار الوفاء ، المنصورة ط/أولى ١٤١٠ هـ .
٤٧- الكليات لأبي أيوب بن موسى الحسيني الكفوي ، (ت: ١٠٩٤هـ) ، ط/ مؤسسة الرسالة – بيروت .
٤٨- لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن (ت: ٧٤١هـ) ، ط/ دار الكتب العلمية – بيروت ط/أولى .

٤٩- اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي (ت: ٧٧٥هـ)، ط/ دار الكتب العلمية – بيروت،
لبنان ، ط/ أولى، ١٤١٩ هـ .
٥٠- لسان العرب لابن منظور (ت:٧١١هـ) ، ط/دار صادر- بيروت ، ط/ ثالثة ،١٤١٤هـ .
٥١- مجمل اللغة لابن فارس لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب (ت:٣٩٥ هـ) ط/مؤسسة الرسالة – بيروت ، ط/ثانية – ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦ م .
٥٢- محاسن التأويل ، لمحمد جمال الدين القاسمي (ت: ١٣٣٢هـ) ط/ دار الكتب العلمية –بيروت ،ط/ أولى – ١٤١٨ هـ .
٥٣- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي
(ت: ٥٤٢هـ) ، ط/ دار الكتب العلمية – بيروت ، ط/أولى – ١٤٢٢ هـ .
٥٤- مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، لأبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي (ت: ٧١٠هـ) ط/ دار الكلم الطيب، بيروت ،ط/ أولى، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م.
٥٥- معالم التنزيل للإمام للبغوي (ت: ٥١٠هـ) ، ط/دار إحياء التراث العربي ، بيروت، ط/ أولى، ١٤٢٠ هـ.
٥٦- معاني القرآن وإعرابه للزجاج (ت: ٣١١هـ) ، ط/ عالم الكتب- بيروت ١٤٠٨هـ.
٥٧- مفاتيح الغيب للرازي (ت: ٦٠٦هـ) ، ط/ دار إحياء التراث العربي–بيروت ط/ ثالثة .
٥٨- مشكل إعراب القرآن لمكي بن أبي طالب (ت: ٤٣٧هـ) ،ط/ مؤسسة الرسالة – بيروت ، ط/ثانية ١٤٠٥ هـ.
٥٩- معترك الأقران في إعجاز القرآن لجلال الدين السيوطي (ت: ٩١١ هـ) ط/ دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ، ط/أولى: ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م .

٦٠- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ)، ط/دار القلم، والدار الشامية –
دمشق بيروت ط/أولى ، ١٤١٢ هـ .
٦١- مقاييس اللغة لابن فارس (ت: ٣٩٥هـ) ، ط/ دار الفكر، ط/ ثالثة ١٤٢١هـ .
٦٢- مِلاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي (ت: ٧٠٨هـ) ط/ دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان .
٦٣- النكت والعيون لأبي الحسن الماوردي (ت: ٤٥٠هـ) ، ط/دار الكتب العلمية – بيروت .
٦٤- الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأحكامه ، لمكي بن أبي طالب
(ت: ٤٣٧هـ) ط/ مجموعة بحوث الكتاب والسنة - جامعة الشارقة ، ط/أولى، ١٤٢٩ هـ .
٦٥- الوسيط في تفسير القرآن المجيد لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي ، النيسابوري (ت: ٤٦٨هـ) ، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ، ط/ أولى، ١٤١٥ هـ – ١٩٩٤ م .